

شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية

د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب

جامعة مؤتة

مدخل

تكاثر شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فقد ذكرت طائفة من الشعراء الذين اشتهروا بهذا الغرض، منهم أحمد بن منير الطرابلسي، وقد وُصِفَ بأنه كان "خبِيثَ اللسان، مهيناً لأعراض الرجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه"^(١)، والرشيد النابلسي، وهو شاعر "شرس الأخلاق جافي الطباع، غليظ الجواب"^(٢)، وملك النحاة الحسن بن صافي، وكان "مُرَّ الشَّيْمَةِ"^(٣)، وابن عَنَيْن، وقد وصفه معاصروه بأنه "سَخِيفَ اللسان، قبيح الهجاء، أغري بهجاء الناس، وتمزيق أعراضهم.. قل أن سلم أحد من الرؤساء والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه"^(٤)، ومحمد بن يوسف السكاكيني من أهل حلب، كان "بذيء اللسان، هجاء شريراً يتقى شره"^(٥)، ومحمد بن يوسف التلعفري "له هجاء شنيع لم يسلم منه أحد"^(٦)، والأديب العرمانى محمد بن عياش "إنسان سوء قل أن سلم أحد من شره ولسانه، قد جعل هجيره الواقعة في أعراض الناس وتلقيبهم، ولم يترك أحداً من الأماثل بحلب إلا وأظهره لقباً ونيزه به"^(٧)، والملك الزاهر الأيوبي، كان "منطلق اللسان، مغرى بهجاء أسرته، وذوي الأقدار من الأمراء والصدور"^(٨)، وسيف الدين السامري، كان "طويل الباع في الهجو"^(٩)، وابن المسجف العسقلاني، كان "أكثر شعره في الهجو"^(١٠). وغير هؤلاء كثير. غير أنه ينبغي أن يشار هنا إلى أن المصادر التي ترجمت لهؤلاء

الشعراء لم تُورد من شعرهم الهجائي إلا القليل، بل إن بعضها لم تذكر شيئاً منه، لذا فإن هذه الدراسة تستقي المادة الشعرية من دواوين الشعراء الذين أكثروا من القول في الهجاء، مثل فتیان الشاغوري وابن الساعاتي وابن عنين، بالإضافة إلى ما لم يُنشر من شعر ابن منير الطرابلسي^(١١)، وما أوردته كتب التراجم والاختيارات من هذا الشعر لأولئك الشعراء وغيرهم.

وثمة عوامل عدة أدت إلى كثرة القول في الهجاء، بعضها شخصي يتعلّق بالخصومات والمنافسات بين الشعراء، أو بالعلاقات الخاصة التي تربط بينهم وبين أبناء مجتمعهم، وبعضها يتصل بظروف العصر وأحواله الاجتماعية، ومن هذه الظروف التفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين فئات المجتمع، إذ يستشف من بعض الأخبار أن عامة الشعب كانت تعاني من الفقر، وأنه كان عليها أن تعمل في المهن اليدوية في المدن، أو في الفلاحة لدى المقطعين من الأمراء وغيرهم. وكانت تفرض على هذه الفئات، على فقرها، الضرائب التي تأكل مساً لديها من دراهم وزروع^(١٢).

ومن هذه الظروف جور بعض الحكام والعمال، وقد ذكرت المصادر صوراً مختلفة لهذا الظلم، وأوردت ضرباً متعدداً من العقوبات التي كان يوقعها بعضهم على الناس، مثل الصلب والتسمير^(١٣).

ومن هذه الظروف الفساد الإداري الذي دبّ في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وتفتت بلاده. فقد انتهز بعض العمال فرصة الصراع بين ورثة صلاح الدين، فطفق يعسف بالرعية، ويستصفي الأموال منها؛ فقد كان الوزير صفي الدين بن شكر "إذا لاح له مال عظيم احتجته"^(١٤) وامتدّ هذا الفساد إلى عدد من القضاة الذين كانوا يظلمون الناس، ويستغلّون نفوذهم لجرّ الدنيا إليهم^(١٥).

بيد أنه يجب أن يُحترس هنا من تعميم الأحكام السابقة على العصر كلّها،

فقد قام الزنكيون والأيوبيون بإصلاحات إدارية واجتماعية واسعة، ولكنه يبقى كغيره من العصور فيه الخير والشر، ومن ثم فإن هذه الدراسة تتناول بعض المظاهر السلبية في الحياة وموقف الشعراء منها، كما تمثلت في شعر الهجاء.

وتتناول الدراسة جانبين من هذا الهجاء، هما: الهجاء الشخصي، والنقد الاجتماعي، أما الهجاء السياسي فلن تعرض له الدراسة لأنه مازج شعر المدح والجهاد، وصار محوراً رئيسياً من محاوره، بالإضافة إلى أن الدارسين قد تناولوا هذا الشعر وعالجوا جوانبه.

أولاً: الهجاء الشخصي

كثُر هذا النوع من الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وتعددت دوافعه وأطرافه، ويمكن تصنيفه إلى ما يلي:

أ- التهاجي بين الشعراء.

ب- هجاء الأفراد.

ج- هجاء المدن والبلدان.

د- هجاء أماكن السكنى والمرافق العامة.

أ- التهاجي بين الشعراء:

أشارت المصادر إلى بعض المساجلات الهجائية التي وقعت بين عدد من الشعراء الشاميين، ومن هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني، فقد ذكر العماد الأصفهاني في معرض ترجمته لابن منير أنه "كان.... معارضاً للقيسراني في زمانه، وهما كفرسي رهان، وجوادي ميدان"، ووصفهما بأنهما "جرير العصر وفرزدقه"^(١٦)، ولم يصل إلينا من هذه المهاجاة إلا القليل، ويبدو أن العامل المذهبي كان له دور فيها، فقد "كان القيسراني سنياً متورعاً، وابن منير

مغالياً متشيعاً^(١٧)؛ لذا فعندما بلغ ابن القيسراني أن ابن منير هجاه كتب إليه^(١٨):

ابن منسير هجوت مني حبراً أفاد الورى صوابه
ولم تضيق بسذاك صدري فإن لسي أسوة الصحابة

ويبدو أن ابن منير كان سليط اللسان في هجائه لابن القيسراني، فقد نسال في القصيدة التي أرسلها إلى ابن المستوفي يشكو له فيها ما فعله الحشوية^(١٩) في داره - نال من كرامة الشاعر، واتهمه في عرضه وشرفه، وذلك إذ يقول^(٢٠):

أتراني أكلت جذر عيالي مثل ما كان يفعل القيسراني
أم كفت الفلوس في خالد ابني عام قادت عليه أم سينان

وينتهز ابن منير دخول ابن القيسراني دمشق، وقد صادف ذلك اندلاع حريق هائل في المدينة، ودخول أسراب من الجراد أتت على بساينها وزروعها، وامتداد الأيدي بالسلب والنهب، فيسخر من الشاعر سخرية مريرة، إذ جعله رمزاً للشؤم وسوء الطالع، مستعبراً له شخصية (طويس) التي يضرب بها المثل في التطير، وذلك إذ يقول^(٢١):

يا طويس الشؤم هذي الحركة الحقت جلق بالمؤنفة كسة
جئتها تذكرها عهداً مضى من نوالي الفتن المشتبكة
يا رسول القدر الحتم اللى كل من سدّ عليها مسلكة
لك رجل قطعت لو جمعت تحت كيوان لسهدت فلكة
شؤمها أسرى من السمّ فما دبّ للملحوع إلا أهلكة

ويصور ابن منير ابن القيسراني وقد تحاماه الناس، وأخذوا يطردونه من كل مكان يحل فيه، فراح يتنقل من بلد إلى بلد حاملاً معه الويلات والمصائب:

شردته طلعة إن صبحت
لم يمل وجهاً إلى مال ثر
لا، ولا طر لها شوق على
أرض قوم غبقتها الدككة
قط إلا تركته تركة
مأمن إلا وأمسى معركة

وتشف القصيدة عن الكراهية الشديدة التي يحملها ابن منير لابن
القيسراني، لذا راح يدعو أولي الأمر في دمشق إلى دفع النحاس والخراب عن
المدينة بطرد ابن القيسراني منها:

يا مجير الدين من دل على
من رمى مغناك، لا ريع، بمن
أي دار أمها ما غمها
ربك المأهول هذي الهلكة؟
كل منجاة نحاهما مهلكة؟
أي ستر ضممه ما هتكه؟

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الإلحاح على استدعاء المعاني التي
تصور شؤم ابن القيسراني وسوء طالعها، وكأن الشاعر بهذا يريد أن يحدث الناس
على نبذها، وعدم الاتصال به، أو التعامل معه.

ولم يقصر ابن منير هجاءه على ابن القيسراني من الشعراء، وإنما هجى
شعراء آخرين وهجوه، فقد كتب أبو نزار الحسن بن صافي المعروف بـ "ملك
النحاة" إلى أحد القضاة وتصنع في الكلام باستعمال لفظية (العاصوي) التي
استغربها ابن منير، فقال هذه الأبيات ساخراً من أبي نزار وعلمه، ومستهجناً هذا
القياس الشاذ^(٢٢):

أيامك النحو والحاء من
أتاننا قياسك هذا الذي
ولما تصنعت في "العاصوي"
تهجيه من تحت قد أعجموها
يعجم أشياء قد أعربوها
غدا وجهه جهلك فيه وجوها

وقالوا قفا الشيخ إن الملو ك إذا دخلوا قرية أفسدوها

فأثارت هذه الأبيات حفيظة أبي نزار، فردّ عليها بأبيات اتهم فيها ابن منير بأنه يغير على أشعار الآخرين ويدّعيها لنفسه، ووصفه بأنه رجل يستحق التأديب، وأخذ عليه إسرافه في هجاء الناس وذمّهم^(٢٣):

أيا ابن منير حسبت الهجا ء رتبة فخر فيالغت فيها
جمعت قوافي من ذا وذا وأفسدت أشياء قد أصلحوها
فقالوا: قفا الشيخ إن الملو ك إذا أخطأت سوقة أدبوها

ومن الشعراء الذين كانوا يتبادلون الهجاء مع معاصريهم أبو الحكم الأندلسي، فقد وصفه ابن أبي أصيبعة قائلاً: "وكان أبو الحكم يهاجي جماعة من الشعراء الذين كانوا في وقته ويهاجونه"^(٢٤). ومن هؤلاء الشعراء الذين هجوا أبا الحكم العرقلة الكلبي، وقد استمدّ العرقلة معاني هجائه من مهنة الطب التي كان يعمل فيها أبو الحكم، فصوّره طبيباً جاهلاً يجلب الحتف إلى كل من يعالجه، على شاكلة قوله يدعو الله أن يريح الناس منه، لأنه طبيب شوم لا يزور أحداً صباحاً، حتّى يكتب له قصيدة يرثيه فيها مساء^(٢٥):

لنا طبيب شاعر أشتر أراحنا من شخصيه الله
ما عاد في صبحه يوماً قتي إلا وفي باقيه رثاه

وإمعاناً في السخرية من أبي الحكم يستعير العرقلة الكلبي طريقته في الهجاء، فيهجوه على سبيل المرثية (وهي طريقة اشتهر بها أبو الحكم كما سيّضح بعد)، كما في قوله يتصنّع أساليب الرثاء تهكماً واستهزاءً، لينتقل إلى الدّعاء على (المهجوّ المرثي)، لأنه كان ضعيف العقيدة رقيق الدّين^(٢٦):

يا عين سحّي بدمع ساكب ودم
قد كان لا رحم الرحمن شيبته
على الحكيم الذي يكنى أبا الحكم
ولا سقى قبره من صيب الذيم
ويستحل دم الحجاج في الحرم^{٢٧}

وهذه المراثي الهجائية مما اشتهر به أبو الحكم الأندلسي نفسه، ولعلها تدلّ على سخرية أبي الحكم من المصير الإنساني، بالإضافة إلى السخرية من المهجوة نفسه، ومما زاد هذه السخرية حدة أنها كانت تصدر عن شخص وصفه معاصروه بأنه كان "محباً للهو والخلاعة... محباً للشراب مدمناً له"^(٢٧). وممن نحا أبو الحكم في هجائهم هذا النحو ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني، والأديب نصير الحلبي، والطبيب المفشل اليهودي، فها هو ذا يندب نصيرا الحلبي - وكان قد اشتغل بالكتابة والشعر والطب والنجوم - ويصوره وقد وضع في القبر فيضج الأموات منه، ويمعنون في الهرب من قبورهم لوضاعة هذا الزائر وخبثه وتنت رائحته^(٢٨):

يا هذه قومي اندبني
يرحمه الله لقسود
قد ضجّت الأموات من
وودهم لو عوضوا
والقوم بين صارخ
ومنك ريقول ذا
ما ضم بطن الأرض يبي
أخبت منه طينة
وقول له لمنك
أما علمست أنتني

مات نصير الحلبي
كسان طويل الذنوب
نكته في التراب
منسه بكل سب أجرب
وممعن في الهرب
أوضع ميت مر بي
من شرقها والمغرب
في عجمها والغرب
أسرفت يا معذبي
شيخ لأهل الأدب

وإذا كان أبو الحكم قد رثى في الأبيات السابقة شخصاً لم يمت هجاء له وسخرية منه، فإنه هجا في الأبيات التالية ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي بعد أن ماتا، وهي أبيات تشف عن رغبة أبي الحكم في السخرية والهزل، وتظهر قدرته على التفنن في إخراج الصور التي تستثير الضحك: (٢٩)

ثم عهدي به وقد أنزلوه القبر	ر بين منكر ونكير
ثم قالوا له ألم تك في التجيب	م بين إفك وزور
ثم أسرفت بعد ذلك في قو	لك بين المنظوم والمنثور
تفحش الهجو ليس تبقي على شيء	خ ضنين بعرضه مستور
فألحاً عليه صفعاً ولم ينفع	ه عذر، وماله من نصير
ثم لم يكثر بذلك لولا	ما رأى من شماتة ابن منير
عندما جاءه يقهقه ضحكاً	وينادي هذا من التعشير

ويجادل ابن منير ابن القيسراني، وتحتدم المجادلة بينهما، وترتفع أصواتهما، ثم يتعاركان في القبر. ولا ريب أن هذا يذكرنا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وما فيها من خصومات بين الشعراء في الدار الآخرة، ولعل أبا الحكم الأندلسي قد تأثر بذلك.

ولم يشتهر في الهجاء شاعر شامي، زمن الحروب الصليبية، كما اشتهر ابن عنين، فقد أكثر من القول في هذا الموضوع، واتسعت دائرة مهجويته من الشعراء وغير الشعراء وفي ذلك يقول أبو العباس الدنيسيري، ويذكر أخاً لابن عنين كان قاطع طريق (٣٠):

أصاب الناس من ولدي عنين شدة وشقا

قد اجتمعاً على ضررٍ عظيم الخطيب واتقنا
 كأنسهما، عدمتسهما على الإفساد قد خلقنا
 فإذا الأعراض يقطعها وهذا يقطع الطرقنا

ومن الشعراء الذين أكثر ابن عنين في هجائهم الرشيد النابلسي، وجُلَّ هجائه له كان فاحشاً، ومن أقله فحشاً البيتان التاليان اللذان يقرنه فيهما بالكلب خسة ووضاعة: (٣١)

شكا شعري إليّ وقال تهجو بمثلي عرض ذا الكلب اللئيم
 فقلت له تسلّ، قرب نجم هوى في إثر شيطان رجيم

ويبدو أن سلاطة لسان الرشيد النابلسي قد ألبت ابن عنين وغيره من الشعراء عليه؛ فهجوه لعلهم يسكتونه، ومن هؤلاء القاسم الواسطي الذي ألح في هجائه على تصوير رداءة شعر الرشيد وفساده، حتّى إنه ألف رسالة فيما أخذ عليه في قصيدة نظمها في الإمام الناصر (٣٢). وقد كان الرشيد النابلسي أبخر، فاستغلّ الواسطي هذه الصفة لتوليد المعاني التي تصف رداءة شعره، كما في قوله جاعلاً رائحة فمه مسيبة عن ذلك الشعر الرديء: (٣٣)

يا من تامل مدلوي وشك فيما يسقمة
 انظر إلي بخير بفي وما أظنك تفهمه
 لا تحسب بآنسه نفس يغيره فممة
 لكنميا أنفاسه نتت بشعر ينظمه

ب- هجاء الأفراد:

شمل هذا الهجاء شخصيات كثيرة في المجتمع، وقد صور الشعراء فيه

بعض النماذج البشرية التي تخرج في سلوكها عن المثل الأعلى للحياة الخلقية
والنفسية القويمة. ويتصل قسم كبير من هذا الهجاء بالحاجة المادية للشاعر، أو
قل بتقصير المهجويين في حق الشاعر فيأخذ في رميهم بصفات تصور بخلهم
وتقتيرهم؛ فقد قصد القاضي الرقي علي بن مشرق شيرز، فلم يحظ عند أهلها،
فقال أبياتاً نعى فيها إلى الناس الجود في تلك المدينة^(٣٤):

أنا ناد في شرق البلاد وغربها بصوت له في الخاقين أغاريدُ
قضى الخير والمعروف في أرض شيرز ومات بها من لؤم صاحبها الجودُ
وأعجب ما لله أولاد متقنذ قنورهم بيض وأعراضهم سودُ

أما العرقلة الكلبية فقد مدح قوماً، فأعطوه شعيراً بدلاً من المال، فقال
يذمهم ويصفهم بالبهانم: ^(٣٥)

يقولون لم أرخصت شعرك في السورى قلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإنه كثير إذا استخلصته من بهائم

ويمدح ابن المسجف العسقلاني قوماً أملاً في عطائهم، فيعود من عندهم
خائباً، فيقول فيهم أسفاً على ضياع عمره في مدحهم حيناً، وفي ذمهم حيناً
آخر: ^(٣٦)

ولقد مدحتهم على جهل بهم وظننت فيهم للصنعة موضعاً
ورجعت بعد الاختبار أذمهم فأضعت في الحاليين عمري أجمعاً

ولم يكن البخل هو الصفة الوحيدة التي رمى بها الشعراء مهجويهم، وإنما
وصفوهم بنعوت أخرى تحط من مكانتهم، وألصقوا بهم، الصفات المستهجنة.
فهذا ابن المسجف يذم جماعة من أصحابه، لأنهم جنباء لؤماء بخلاء، لا

يصدقون أمل أمل، ولا يؤدون الصداقة (٣٧).

يا رب كيف بلوتني بعصابة
جبناء ما استجدتهم لملمة
فجوههم غوذ على أموالهم
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة
ما فيهم فضل ولا إفضال
لؤماء ما استرفدتهم بخال
وأكفهم من دونها أقال
أل وهم عند الشدائد آل

ويدعو ابن الساعاتي على دار أحد مهجوييه بالخراب، لما كان يدور فيها
من أحاديث الكذب والبهتان، ولاتصاف صاحبها بالخيانة والبخل وتقل الروح،
وذلك إذ يقول: (٣٨)

يا دار الأكرم لا أشوتك صاعقة
فرب يوم غدونا في عراصك أكال
تيت يدها فكم في كل جارحة
ذو النفس مخلوقة في الثقل من زحل
ولا أصابتك في محل يذ السحب
ين للسحت سماعين للكذب
منه، وإن عد فرداً من أبي لهب
والكف مطبوعة من عقدة الذنب

وقد تناول الشعراء الصفات الجسدية لمهجويهم، وحاولوا أن يصوروا هذه
الصفات تصويراً ساخراً، على نحو ما فعل المسجف العسقلاني عندما هجا
شخصاً نحيلاً أحول، معتمداً على المفارقة اللفظية التي تثير الضحك (٣٩):

وغرير كأنه غصن تين
قلت: ما الاسم قد أطال عنائي؟
أحول المقلتين مرّ لماء
قال: مسعود، قلت: من لا يراه

ويسخر سالم بن مؤمن المعري من إنسان كبير الأنف مضخماً من
صورته: (٤٠)

إن كنت مفتخراً بأنفك فهو قد بلغ السماء
لو كنت تصلح للإمارة لم يكن إلا لسواء

ويؤكد العرقلة الكلبى الذم بما يشبه المدح عندما يصف أحد مهجوييه،
فيصوره صاحب وجه كاسف، وقوام قصير منقصف، وبنان شحيح لا يقطر بأي
خير، وذلك إذ يقول: (٤١)

لك وجه كأنه الـبدر لـكن إذا كُـسِفُ
وقوام كأنه الغصـن لـكن إذا قُـصِفُ
وبنان كأنه البحر لـكن إذا نُـشِفُ

'ومن الأفراد الذين أكثر الشعراء من هجائهم الأطباء، ولعل هذا يعود إلى
أن بعض الذين اشتغلوا بالطب لم يكونوا مؤهلين لذلك، وأنهم لم يحسنوا معالجة
مرضاهم، وربما جلبوا الأذى لهم' (٤٢). وقد رأينا طرفاً من هذا الهجاء في هجاء
العرقلة لأبي الحكم الأندلسي. وتكاد جلّ الأشعار التي قيلت في هجو الأطباء
تدور حول فكرة رئيسية واحدة هي تصوير جهلهم بأصول هذه المهنة، وعدم
معرفةهم بقواعدها العلمية والعملية، كقول الشاعر الطبيب سديد الدين بن رقيقة
يهجو أحد الأطباء ويدعوه إلى ترك هذه المهنة لأنه جاهل بها، مصوراً الخطر
الذي يمثله هذا الطبيب الجاهل على أرواح الناس، حتى إنه غدا أشدّ خطراً عليهم
من الوباء: (٤٣)

أي فاعلاً خلّ التطبّ واتّبذ
فتركيب أجسام الأنام مؤجل
بهرت الوباء إذ قتلك الناس دائماً
فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل
فلم، لا كلاك الله، تعجل بالحل
وذلك في الأحيان يحدث في فصل

وقد هجا ابنُ خروف الطيبِ الذخوارُ بعدد من المقطوعات حاول أن يبيِّنَ
فيها روح السخرية التهكمية، كما في قوله يجعل الطبَّ سيفاً يصول به الذخوار
على أرواح العباد: (٤٤)

طَبَّعَ الْمَبْهَذِبَ طَبَّه
سيفاً وصال على المهج
بابُ السَّلامَةِ لا يُرى
منه، ولا بابُ الفَرْجِ

ولم يُهَجِّج من الأطباء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية أحد كما هجى
الطبيب موفق الدين بن المطران، مع أنه كان "أمير أهل زمانه في علم صناعة
الطب وعملها" (٤٥) ولعل ذلك يعود إلى شخصية ابن المطران، فقد كان -على
علمه- يغلب عليه "الزَّهو بنفسه والتكبر حتَّى على الملوك" (٤٦)، لذا تناول
الشعراء هذه الصفة، وعرضوها عرضاً ساخرأ، على شاكلة قول ابن عنين
يصتور ابن المطران يتجول في شوارع دمشق متكبراً مختالاً، وقد تبعه غلامه
(عمر) (٤٧):

متى أرى سيدي الموفق يختا
يمشي الهوينى وخلفه عمر
وسيدي كلمنا تأملسه
تجمعس قل مسن يناظره
ل ضحى في عراضها الرحب
يختال مثل المهاة في السرب
ناه وأبدي غرائب العجب
في الناس إلا تعفوق الرحبي

وقد كان ابن المطران نصرانياً، فأسلم، إلا أن ابن عنين ظل يشكك في
هجائه له، في صفة إسلامه، ويربطه بحبه لـ (عمر) الذي سبق ذكره، وهو
غلام مسلم "في غاية جمال الصورة" (٤٨)، كما في قوله يحمد الله -ساخرأ- على
هداية ابن المطران، لينفذ من ذلك الحمد إلى الإقذاع في هجائه: (٤٩)

الحمد لله واجيب الشكر
فقد اهتدى سيدي أبو نصر

وَاتَّبَعَ الْحَقَّ حِينَ لَاحَ لَهُ
وَقَالَ إِنَّ الْمَسِيحَ لَيْسَ بِمَعْبُودٍ
مَا ذَاكَ إِلَّا سَتْرٌ عَلَى عَمْرٍ
فَقُلْتُ يَا قَوْمَ إِنَّ فِي عَمْرٍ
شَكْتَ لَهُ أَخْتَهُ لَهَيْبٍ.....
فَجَرَّ الْهَدْيَ مِنْ دَجَنَةِ الْفَجْرِ
— وَوَدَّ، وَأَفْتَى الصَّلِيبَ بِالْكَسْرِ
رَبُّ أَنْتَهَاكَ خَيْرٌ مِنَ السَّتْرِ
مَعْذَرَةٌ إِنْ سَمِعْتُمْ عَذْرِي
.....

وقد لجّ ابن عنين في هجاء ابن المطران، فأبغضه وحرّض السلطان علي
نفيه،^(٥٠) ويبدو هذا الهجاء في بعض صورته ضرباً من التجارب الأسلوبية التي
تستهدف إظهار القدرة على الإتيان بالصور والمعاني، كما في قوله ينسب إلى
العامّة زعمها أنّ ابن المطران قد تشيّع، ثمّ يعجب من هذا الزعم لأنّ الذي دعاه
إلى الإسلام هو (عمر!!)^(٥١)

قالوا الموقّق شيعيّ فقلت لهم
وكيف يجعل دين الرفض مذهبه
هذا خلاف الذي للناس منه ظهر
وما دعاه إلى الإسلام غير عمر!!

وقد هجا بعض الشعراء، في إطار الهجاء الفرديّ، أقاربهم. فقد هجا سيف
الدين السامريّ خاله وخال أبيه^(٥٢)، وهجا أبو الفتح البلطيّ ابن عمّه وتبرّأ
منه^(٥٣). وكان ابن رويّل الأتبار، على صلاحه ونسكه، "مغريّ بهجاء زوجته،
لأنّها أشارت عليه أن يمدح كبيراً فما نفع، فهجاه فصنع، فقال لولا زوجتي لمسا
صنعت، ولولا تغريرها لما وقعت"^(٥٤). وقد أفحش ابن رويّل في هجاء هذه
الزوجة، كما في قوله يرميها بالفسق والفجور^(٥٥):

لي قطة أنظف من زوجتي
وكلّ منا صوره ربّنا
و..... أنظف من فيها
من الخنا مركّب فيها

وهجا ابن عنين أباه بأبيات أشبه ما تكون بالاعتراف الذاتي بإحساس
الشاعر بمركب النقص من جهة هذا الأب، إذ جعله سبب معاناته في هذه الحياة،
وعلة شعوره بالنقمة على الآخرين؛ فهو الذي جنبه فعل الخير، وجذبه إلى رديء
الأعمال، لأنه إنسان ضئيل القدر، وضع المهمة، كثير العيوب، جمّ المفاسد، أينما
توجّه لا يأتي بخير، وقد ورث الشاعر ذلك كله، يقول: (٤٦)

وجنّبي أن أفعل الخير والد ضئيل إذا ما عدّ أهمل المناسب
بعيد عن الحسنى قريب من الخنسا وضع مساعي الخير، جمّ المعاييب
إذا رمت أن أسمو صعوداً إلى العلى غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

وأخيراً فقد هجا بعض الشعراء أنفسهم، ولعلّ هذا الهجاء كان يصدر أحياناً
عن إحساسهم بالنقص، فقد كان العرقلة الكلبي شيخاً دميماً أعور، فقاده إحساسه
بافتقار ميسم الجمال إلى التندر بنفسه، كما في قوله (٤٧):

حاجتي شقة تشقّ على كـ لّ بغيض من الورى وحسود
ذات لون كمثل عرضك لا عر ضي، وحظي من القريب البعيد
فابعتنّها صفيقة مثل وجهي جلّ من صاغ جلده من حديد
واجعلنّها طويلة مثل قرني ولساني، لا مثل قدي وجيدي
كي أرى في الشام شيخاً خليعاً في قميص من العراق جديد

وعندما طالب الملك المعظم عيسى الشاعر ابن المسجف العسقلاني
بالزكاة، رفع إليه الشاعر مقطوعة نزه فيها الملك أن يحصل الزكاة منه، لأنّ ماله
حرام، ولأنه لا يصوم ولا يصلي (٤٨):

أيما ملكاً حوى علماً وجوداً وحاز لكلّ مكرمة وفضل
يكأفني البهاء زكاة مال حرام كلّ من غير حلّ

وكيف يقوم بالزكوات من لا يصوم ولا يحج ولا يصلي

ج- هجاء المدن والبلدان:

شاعت في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية ظاهرة هجاء المدن والبلدان، فقد هجا الشعراء دمشق، و حلب، وبخارى، وسامراء، ومصر، وغيرها من البلدان الشامية وغير الشامية. ولعل هذا الهجاء يناقض ظاهرة مدح المدن التي ذاعت في الشعر الشامي آنذاك^(٥٩). وتختلف دواعي هذا الهجاء من شاعر إلى آخر، فقد يكون الدافع مذهيباً على ما كان من هجاء ابن منير الطرابلسي لدمشق وأهلها، وذلك في سياق القصيدة التثرية التي تحدث فيها بأسلوب هزلي عن بعض معتقدات الشيعة، إذ حمل فيها على أهل دمشق، وجردهم من القيم والفضائل، فوصفهم بالضلال وضعف الدين، والطيش، إلى غير ذلك من الصفات التي تزرى بهم، وذلك في قوله: (٦٠)

وأعتت ضلالاً الشأ	م على الضلال المشتهر
وسكنت جلقاً واقتدي	ت بسهم وإن كانوا بقر
بقر ترى بحليمهم	طيش الظليم إذا نقر
وهو أوهم كهوائهم	وخابط مائهم القذر
وعليمهم مسس تجهل	وأخو الديانة محتقر
وخفيفهم مسس تنقل	وتقيلهم فيه العبر
وطباعهم كجبالهم	جبلت وقادت من حبر

أما ابن عنين، وهو شاعر سني، فقد اكتفى وهو يهجو حلب بالحديث عن الخلافات المذهبية التي نشبت بين أبناء المدينة، وعد ذلك ممّا يؤخذ عليها، بالإضافة إلى عيوب أخرى. يقول^(٦١):

ما الصبح فيه من المساء بأمثل
عندي وديجور الظلام المسبل
صوب الغمام، ومعشر لعنوا علي
أبدأ وعهد نسانهم لم يحلل

لا عاد في حلب زمان مرّ لي
سيان في عرصاتها راد الضحى
في معشر لعنوا عتيقاً، لا سقوا
قوم عهود رجالهم مطولة

وقد لا يجد شاعر أو آخر تقديراً من أهل المدينة التي يقيم فيها، فيهجوها،
على نحو ما فعل ملك النحاة في هجائه لدمشق، مازجاً هذا الهجاء بالتذمر
والتهديد، وذلك إذ يقول: (٦٢)

شعنا يكره ماؤها و هواؤها
بفواقر التبست لها أبناؤها
إن أقدرتني دولة ولوؤها
والأرض نازحة بها أرجاؤها

لأرحلن مطيتي عن بلدة
ولأرمين دمشق غسير مُحجّف
ولأزجرن العيس عنها معرضاً
فإلام أغضي في دمشق على قذى

وأكثر ابن دنينير من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقدير الذي
يعتقد أنه يستحقه، وكان شديد الوطأة في هذا الهجاء، على نحو ما نرى في
الآبيات التالية التي يصفهم فيها بأنهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول
الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض (٦٣):

جود كف لفتيال أو نقيير
ومقال السزور والجهل الغزير
من أهاليها بأرباب السعير
بل يجودون بريّات الخدور
عندهم، بل عندهم حظ.....

لم أجد بالشام من يرجى له
خلقوا للسوم طمرا والخنس
ودمشق جنة قد ملئت
لا يجودون بمسال أبدا
ما يرى العافون حظاً لهم

وعدم التقدير هذا نجده واضحاً في هجاء ابن الساعاتي لمصر، وقد بسالغ في هذا الهجاء، فشمّل به نهر النيل نفسه، وذلك في قوله^(٦٤):

وَمَا مِصْرَ لَا يَقْضِي بِهَا حَاجُ طَالِبٍ بَغَاهَا، وَلَا يُمَضَى لَدِي أَمَلِ حَكْمٍ
لَأَبْحَرَ مِنْهَا النَّيْلَ وَهُوَ مِجَاجَةٌ مِنَ الْبِخْلِ، لَا بَلْ أَظْلَمَ الْقَمَرُ التَّمَّ

ويشعر الحافظ ابن عساكر بالغبية في أثناء إقامته في نيسابور، فيذم المدينة أهلاً ومناخاً، قائلاً^(٦٥):

لَا قَنَسَ اللَّهُ نَيْسَابُورَ مِمَّنْ بَلَدٍ مَا فِيهِ مِنْ صَاحِبِ يَسْلِيٍّ وَلَا سَكْنٍ
لَوْلَا الْجَحِيمُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مِنْ حَرِّقٍ لَفَرَقَةَ الْأَهْلَ وَالْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ
لَمَتَ مِنْ شِدَّةِ السَّبْرِ الَّذِي ظَهَرَ أَثَارَ شِدَّتِهِ فِي ظَاهِرِ الْبَنَنِ

د - 'هجاء أماكن السكنى والمرافق العامة:

تناول بعض الشعراء بالهجاء أماكن سكناهم، ويرتبط هذا الهجاء بالشكوى من انعدام السكن والطمأنينة، والتذمر من الفقر والحرمان، فقد ذمّ كمال الدين بن الأعمى دار سكناه في قصيدة أولها^(٦٦):

دَارٌ سَكَنْتَ بِهَا أَقْلَ صِفَاتِهَا أَنْ تَكْثُرَ الْحَسْرَاتُ مِنْ حَشْرَاتِهَا

وقد أطل الشاعر في وصف الحشرات التي تستوطن هذه الدار التي نزع عنها الخير وتباعده، ودنا إليها الشرّ من جميع جهاتها، وعبر عن آلامه ومعاناته الشديدة من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والروائح الكريهة التي تصدر عنها يقول:

من بعض ما فيها البعوض، عدمته
وتبيتُ تسعدها براغيثٌ متى
وبها ذباب كالضباب يسدّ عيني
وبها خفافيش تطير نهارها
وبها من الجرذان ما قد قصرت
وبها خنافس كالطنافس أفرشت

كم أعدم الأجدان طيب سيناتها
غنت لها رقصت على نعماتها
من الشمس، ما طربي سوى غناتها
مع ليلها، ليست على عاداتها
عنه العناق الجرذ في حملاتها
في أرضها، وعلت على جنباتها

ويمضي الشاعر في قصيدته على هذا النحو من تصوير الحشرات
والزواحف التي تقيم في داره، فيذكر العقارب التي ترتع في ساحاتها، واليوم التي
تعكف في جنباتها، وبنات وردان التي يفوت العين كنه ذواتها، والنمل
السليمانى التي تحطم جلده ويعاني من سطواتها، وغيرها... ويصف خلال ذلك
قدم هذه الدار التي استوطنتها الجن، وتصدع جدرانها، وتهدم سقفها، فيقول:

قد رممت من قبل أن يلقي لا
شاهدت مكتوباً على أرجانها
لا تقربوا منها وخافوها ولا
دم أمنا حواء في عرفاتها
ورأيت مسطوراً على عتباتها
تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها

ويخلص الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن آلامه ومعاناته من
الإقامة "مفرداً" في هذه الدار التي وصفها بأنها "جهنم الدنيا":

كم بت فيها مفرداً والعين شو
وأقول يا رب السموات العلى
أسكنتني بجهنم الدنيا ففى
قا للصباح تسح من عبراتها
يا رازقاً للوحش في فلواتها
أخراي هب لي الخلد في جنباتها

والقصيدة بعد هذا كله تشف عن تضجر الشاعر من حياته، وافتقاده للملاذ

الذي يطمئن إليه، والصديق الذي يأنس به، وقد تناثرت في القصيدة بعض الصور التي تشي بذلك، فقد قرن الشاعر، مثلاً، لدغ العقارب بإساءة الأقارب والأصدقاء إليه، داعياً الله أن يحميه من ذلك:

وبها عقارب كالأقارب رتعا فينا، حمانا الله لدغ حماتها

وحين تحدث الشاعر عن الأفاعي التي أقامت في الدار استعار صفات لا تكون إلا في بشر:

كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة ة ولا حياة لمن رأى حياتها
السم في نقاتها، والمكر في فلتاتها، والموت في لقاتها

بل إن المبالغة في التصوير قد تدلّ على أن الشاعر كان يرمي إلى أبعد من المدلول الحرفي للصورة التي يرسمها للحشرة، كما في قوله يصف (الجراحات) التي يسببها له (القراد):

وبها قراد لا اندمال لجرحها لا يفعل المشراط مثل أداها
أبدأ تمصّ دماناً فكأنها حجارة لبدت على كاساتها

وعندما أنهى الشاعر قصيدته سأل الله -تعالى- أن يجمع شمله بمن يهواه، ويجد السكنة في جواره، ويؤنس وحدته:

واجمع بمن أهواه شملّي عاجلاً يا جامع الأرواح بعد شتاتها

وكثر في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية هجاء الحمامات، ولعلّ هذا يعود إلى سعة انتشارها، وافتقاد قسم منها للنظافة وشروط السلامة العامة.

فقد دخل كمال الدين بن الأعمى نفسه حماماً ضيقاً، شديد الحر، ليس فيه ماء بارد، فقال يذمه، ويصف من يدخله، مصوراً شدة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه الذي يشبه طاقة سجن، وفضاظة القائم عليه، وسوء معاملته للناس (٦٧):

إن حمامنا الذي نحن فيه
مظلم الأرض والسما والنواحي
حرج بابه كطاقة سجن
وله مالك غدا خازن النسا
كلما قلت قد أطلت عذابي
قلت لما رأيته يتلظى:
قد أناخ العذاب فيه وخيم
كل عيب من عيبه يتعلم
شهد الله من يجز فيه يندم
ر، بلى مالك أرق وأرحم
قال لي أخسا فيه ولا تتكلم
ربنا اصرف عنا عذاب جهنم

وقد زار جوبان القواس حماماً، مخدوعاً بظاهره وما عليه من نقوش وتصاوير، فما أن دخله حتى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظلام حجراته، وأخذ يسير فيه مثلماً طريقه كالأعمى: (٦٨)

جنت أريد الحمام يوماً
حتى إذا جزت نلت ريحاً
أثقل خوف الوقوع رجلي
وكلما جاء لها زبون
فغرني النقش والحصير
كأنما تتبش القبور
فيها كما ينقل الضير
قلنا: ألم يأتكم نذير؟

ويحصى الأسعدي مجموعة من العيوب والمساوي التي عاينها في أحد الحمامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام بنظافته والعناية به، وذلك إذ يقول: (٦٩)

رأيت لحمامكم سotte
يظل لها كل طلق عبوسا

هواء تجمّد منه الرّؤوس وماء يذيب الكلى والنّفوسا
وسقف يدرّ كفيض الغمام وأرض تمناع عنها الجلوسا
وطين تغرغر منه الحلق وعشواء تمنح^(٧٠) روحاً خسيسا

ثانياً: النقد الاجتماعيّ

لم يقف الشعراء الشاميّون زمن الحروب الصليبيّة عند حدود الهجاء الشخصي، وإنما تعدوه إلى نقد بعض مظاهر الفساد الاجتماعيّ، والتّديّد بها، وتصوير معاناة الناس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وهم في ذلك كلّهم كانوا يتمثّلون مشاعر العامّة، ويصدرون عنها. وقد تعدّدت مجالات النقد الاجتماعيّ آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، وظاهرة الكسب غير المشروع، والفقهاء، والمتصوّفة، وسدنة المساجد، وغير ذلك.

وقد كثر الشعر الذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكّام مباشرة، بحيث يبيّن الشعراء فيه مواضع الخلل والفساد، ويوجهون الأنظار إليها دون موارد. فعندما تفاقم ظلم السامريّ وزير الملك الصالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسيّ إلى الملك الصالح قصيدة اصطنع فيها أسلوب الوعظ والنّصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسماهم له واحداً واحداً، أخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولا سيّما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما. يقول: ^(٧١)

يا مالكا لم أجد لي من نصيحتته بدأ، وفيها دمسي أخشاه منسفا
اسمع نصيحتته من أوليته نعماً يخاف كفرانها إن كفّ أو تركا
والله لا امتدّ ملك مدّ مالكة على رعيتيه من ظلمه شيكيا
ترى الحسود به مستبشراً فرحاً مستغرباً من بوادي أمره ضحكاً
وزيره ابن غزال والرقيع له قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا

وثعلبٌ وفضيلٌ من هما، وهما
جماعة بهم الأقات قد نُشِرت
ما راقبوا الله في سرّ وفي علن
إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم
أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكنا
والشرع قد مات والإسلام قد هلكنا
وإنما يرقبون النجم والفلكا
أو كان شرّاً وأمرأ ستيّاً فلكا

وكتب سيف الدين السامريّ إلى طوغان حاكم البيرة، وأسندمر حاكم
طرابلس أبياتاً استنكر فيها خضوعهما لأستادارهما العلم سنجر ونائب البرّ
الشجاع همّام، مصوراً سيطرة هذين الرّجلين على شؤون الحكم، واهتمامهما
بشؤونهما الخاصّة، واستخفافهما بالرّعيّة، واستحلالهما دماءهما وأموالهما.
يقول: (٧٢)

اسم الولاية للأمير وماله
وجباية القتلى وكلّ مصيبة
سيفان قد وليا وكلّ منهما
وبياب كلّ منهما علم ينك
ما الناس عندهما بناس لا ولا
وقد استحلا منهم ما لم يزل
فمتى أرى الدنيا بغير سناجر
فيها سوى الأوزار والأثم
تجبي منافعها إلى همّام
ماضي العزائم دائم الإقدام
ل ما وجود به من الإنعام
يريسان هذا الناس كالأنعام
من مالهم ودمانهم بحرام
والقطع والتكيس للأعلام

واستهجن شعراء آخرون سياسة بعض الحكام التي تخالف المعهود في
سياسة الدولة الإسلاميّة، فعندما استوزر الملك الأمجد بهرام شاه مهذب الدين
السامريّ، قال فتیان الشاغوريّ أبياتاً استغرب فيها أن يقوى نفوذ اليهود في دولة
الملك الأمجد، وأنكر عليه استيزاره للسامريّ الذي أكثر من استخدام أقاربه من
السّمرة، فـ "كثّر منهم العسف وأكل الأموال والفساد" (٧٣)، ودعاه إلى الفتك بهم،
والقضاء عليهم: (٧٤)

الملك الأمجد الذي شهدت
أصبح في السامري معتقداً
و السامريون كالبرامك من
له ملوك الزمان بالفضل
ما اعتقد السامري في العجل
قبل، فأين الرشيد للقتل؟!

ونزع بعض الشعراء في تعريضهم بالحكام إلى تشويه صورة المهجو
ونعته بكل قبيح منفر، من ذلك قول محمد بن سوار بن إسرائيل يصف أحد
المتولين الجائرين، جاعلاً إياه شوماً على الرعية، ومصوراً المفارقة الأخلاقية
في سلوكه، وانعكاس الأحوال في عهده: (٧٥)

يا فاضح الدين والدينيا بسيرته
قد ضاق ظاهر ما في الأرض منك فما
خفص عليك فإن الناس قد أسوا
وقامع العدل والإحسان والجد
بباطن الأرض ميت غير محسود
من خضرة العيش في أيامك السود

وإمعانا في الانتقاص من قدر الحكام، استعمل الشعراء صور الحيوانات
والحشرات وقارنوا المهجوين بها، كما في قول البديع الدمشقي يشبه أحد الحكام
بالبهيمة (٧٦):

حاكمكم بهيمة
وليس فيه مضغة
ليست تساوي العلفا
طيبة إلا القفا

ويعرض العلم الشاتاني بالوزير صالح بن العجمي ويصفه بأنه "تيس"
ويستطرد إلى ذكر العماد الأصفهاني (٧٧):

وزارة التيس أبي فاسد
عاند علمي جهله مثمما
قد عم أهل الأرض منها الفساد
هذ قوى الفضل بقصد العماد

وتعرّض بعض الشعراء في نقدهم للحكام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنينير ابن يعلى وزير الملك الظاهر بحلب في عدّة مناسبات، من ذلك قوله يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق^(٧٨):

ما إن سمعتُ ولا رأيتُ ولن أرى لؤماً يماثل لسؤم عبد الباقي
هو جاهل واهي العزيمة أحقق صعب العريكة ضيق الأخلاق
فلو أن رجليه بخفة رأسه لغدا يفوت نواظر الأحداق

وينتهز ابن دنينير مناسبة حجّ المعتمد والي دمشق لينعته بالرياء، ويتّهمه بأنه حجّ خوفاً من الملك المعظم عيسى لا خشية من الله. يقول: ^(٧٩)

حجبت يا شرّ خلق الله كلهم لما تعرّيت من مال ومن جاه
وكان حجك يا من لا خلاق له خوف المعظم لا خوفاً من الله

وقد أفحش عضرس الحلبيّ في هجاء أحد رؤساء حلب، فرماه في شرقه ورجولته، وذلك إذ يقول^(٨٠):

شكت ابن صقر عرسه وتظلمت عدم الجماع وقلة الإنفاق
فأجابها بتدليل وتخضّع والدمع منحدر من الأماق
بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي من حلّ قيدك أن يحلّ وثاقي

وكتب ابن الساعاتي إلى بعض الأكابر، وقد ولي ولاية، أبياتاً عنّفه فيها على تكبره على الناس، مبيّناً له أن هذه الولاية لن تدوم وأنها "كأحلام نائم". يقول^(٨١):

تتبه علينا أن وليست ولايعة
وما المال ذا نفع وإن كان سالماً
فما هي إلا مثل طيف مسلم
رويذا فما شيء لديها بدائم
إذا كان عرض المرء ليس بسالم
وما عزها إلا كأحلام نائم

وقد صاغ شعراء آخرون تقدمهم للحكام بأسلوب هزليّ تتبدى فيه روح
السخرية بقوة، ولعل أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الذي ثابر على هجاء الحكام
في عصره، وآثر ألا يأوي إليهم، ولا يكف عن ذمهم، حتى اقتحم بأهاجيه
غضبهم، وإحن صدورهم. ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعبر عن تجربة
إنسانية عميقة فيها قدر طاغ من حدة الإحساس وقوة الشعور. فما هوذا ينتقد
الجهاز الإداري لمدينة دمشق، فيذم بدر الدين مودوداً شحنة المدينة، ويضم إليه
طائفة كبيرة ممن يعملون معه، ويتهمهم في أمانتهم وكفايتهم، ويرميهم في
أخلاقهم وسلوكهم^(٨٢):

ما عند مودود من قلت مثالبه
ومن سواه فكلب لا خلاق له
المستشار عفيف الدين قد نمت
وابن النفاية والنيس الشريف وجع
والأقف الكلب رأس الأمر صاحب يد
والأحمق الجاهل الكردي يسأل في
إلا الميسارز إبراهيم نائبه
قد أعجزتني فما تحصي معايبه
ييدي على لومه ممّا أعاتبه
س الكلب مشرفه والعلق كاتبه
وان الأمير وجاييه وحاسبه
حبس العقيبه عن علق يداعبه

ويهجو ابن عنين أمير البيرة بدر الدين حسناً، فيتهكم به، ويصوره
تصويراً مضحكاً، وذلك إذ يقول^(٨٣):

لنا أمير قرنوه
عطؤه وطعنوه
ينطح في الأفق الفلك
ما غير دق بالحنك

فسهم الذنباى أبدا
كانه فى قلعة البيه
فى أىما جيش سلك
ررة صبر السامك

وعندما نفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف فى وجه مقدمى
الدولة قائلاً^(٨٤):

لو كنت أسود مثل الفيل هامته
كانت حوائج مثلى عندكم قضيت
عبل الذراعين فى غرموله كبر
لكننى أبيض فى أيدى قصر

وبعد أن أذن له الملك العادل بالعودة إلى دمشق، عاد إليها قوى النفس،
وهو ينشد^(٨٥):

هجوت الأكابر فى جلق
وأخرجت منها ولكننى
ورعت الوضيع بهجو الرفيع
رجعت على رغم أنف الجميع

وتناول الشعراء فى سياق تقديم لأجهزة الحكم والإدارة ظاهرة الكسب
غير المشروع واختلاس أموال الدولة والثراء على حساب الشعب. فقد استهل
ابن منير الطرابلسي قصيدته التي قالها فى هجاء القاضي الأعز أبي الفتح
محمد بن عبدالله التميمي، قاضي صور، بأبيات صور نفسه فيها يقف عند بئاع
خبز يستدين منه، وبينما هو كذلك، يمرّ موكب القاضي، فيتشبّه ابن منير به،
فيأخذه القاضي معه إلى بيته، ثم يأخذ ابن منير فى وصف هذا البيت وما فيه من
بذخ ونعيم، وكأنه يوجه الأنظار إلى هذا القاضي وأمثاله ممن أثروا على
حساب الشعب، وغرقوا فى النعيم، بينما لا تجد العامة (رغيف الخبز) إلا
دينياً^(٨٦):

كنت يوماً فى باب جيرون أتلو
أية الدين عند بئاع خبز

فإذا وقع بغلة و غلام
وعليها فتى ضئيل المحيّا
قلت: من ذا؟ فقيل: قاض جليل
وهو ياوي إلي ذكاء وفضل
فتدانيبت ثم سلّمت فاستفـ

يقزع النَّاس بين دفع ولهز
مكثّر من ملونات وطرز
لقبوه في بيته بالأعز
قلت: يا نفس قد ظفرت بكنز
رس حتّى استبان جمعي وفرزي

فدخلنا الدهليز فابتدر الإذ
بين دست وسسلة ودواة
ودعا بالطعام فاخترت من حلـ

ن فأغرقت في دمقس وخرز
ورقيق من تسستري وقرز
وومن حامض المذاق ومز

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو من وصف ما رآه في بيت
هذا القاضي من مظاهر البذخ والترف. وحين يأسى فتیان الشاغوري لموجبات
الغلاء التي توالى على بلاد الشام، يلتفت إلى أولئك الذين احتجوا الأموال،
وسكبوها في دورهم، بينما تعاني الرعية من الجوع والضعف. يقول^(٨٧):

هم أطلقوا طرف الغلاء فجاءنا
ما بين جذب نحن فيه وخصصهم

عن طرف رخص بالغلاء مقيد
إلا كغلاة سبهم رام جيد

وقال أبو شامة المقدسي قصيدة طويلة صور فيها فساد القائمين على أموال
الوقف في دمشق لعصره، ووجد عليهم موجدة شديدة، لأنهم كانوا يتصرفون في
هذه الأموال على غير هدى، وينفقونها حسب أهوائهم ورغباتهم، ويحرمون منها
مستحقيها من طلبية العلم، ومما قاله فيها^(٨٨):

اتخذ حرفة تعيش بها يا
طالب العلم، إن للعلم ذكرا

لا تُهنه بالآتكالِ على الوقف — فب، فيمضي الزمان ذلاً وعسرا
 إنما تحصل الوقوف لشريفاً — ر من العلوم مبراً
 أو لمن يلزم الأكابر لا يبي — رح في خدمة ومدح وإطرا
 والضعيف المشغول بالعلم يلقي — من ولاة الوقوف هجرا وهجرا

وعمل سيف الدين السامري أرجوزة سماها السامرية، أولها^(٨٩):

يا سائق العيس إلى الشام وقاطع الوهاد والأكام

"حطّ فيها على الكتاب، وأغرى الناصر بمصادرتهم"، إلا أن هذه الأجزاء لم تصل إلينا.

بيد أن ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة في الحديث عن بعض العمال والمستخدمين الذين أطلقوا أيديهم في أموال الرعية ولا سيما في دولة الملك المعظم عيسى، فعندما أمر هذا الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأموي بدمشق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليظعن به في أمانة سدنة المسجد الذين نهبوا أمواله. يقول^(٩٠):

لَمَّا رَأَى الْجَامِعَ أَمْوَالَهُ مَأْكُولَةً مَا بَيْنَ نَوَابِيهِ
 جُنَّ فَمِنْ خَوْفٍ عَلَيْهِ غَدَا مَسْلَسلاً مِنْ كُلِّ أَبْوَابِهِ

ولمّا أمر الملك المعظم عيسى بنزح ماء خندق القلعة بدمشق، ونال الناس من ذلك جهد عظيم، انتهز ابن عنين ذلك ليلمز أحد القضاة ويظعن في أمانته، فاقترح على الملك المعظم أن يضع هذا القاضي يديه في الماء فينزحه، ولا يبقى منه شيئاً^(٩١):

أرح من نزح ماء البرج يوماً
مر القاضي بوضع يديه فيه
فقد أفضى إلى تعب وعي
وقد أضحى كراسي الدولعي

ويقترّب ابن عنين من الرّوح الشعبيّة اقتراباً شديداً في ألفاظه وأساليبه،
حين يهجو صاحب خزانة الملك المعظم عيسى، ويجرده من كلّ فضيلة، ولا
سيّما من الأمانة على أموال الخزانة^(٩٢):

يا ملك الدنيا الذي أعظم اللـ
أنا أشكو إليك جور ربيع
عدم العقل والمروءة والإحسـ
وحوى اللؤم والرقاعة والخسـ
زعموا أنّه حفيظ على الما
ه بتأييد عزّه سلطنة
لقبوه الصّقعان تاج الخزانة
سان والدين والحيا والأمانة
سة والجهل والخنا والخيانة
ل أمين؛ قلت: اسكتي يا فلانة

وكان كثير من القضاة في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة عرضة
لهجاء الشعراء ونقدهم، مع أنّ عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقد
انتقد ابن دنينير القاضي حجة الدين الشهرزوري، وشهرّ به، ونعتّه بالجهل
والظلم والفسق والفجور، وذلك في قوله^(٩٣):

قاضي غدا في الويل والثبور
مين قبيح ما يأتي من الأمور
في بخله ولؤمه المشهور
والظلم والجور وقول الزور
وجهله المركب الموفور
معترف بالفسق والفجور

وتذكر المصادر أن القاضي شرف الدين بن الزكي كان
"نزهاً.... عفيفاً"^(٩٤)، إلا أنه لم يسلم من لسان ابن عنين الذي كتب إلى الملك
المعظم عيسى أبياتاً يتهم فيها هذا القاضي بالميل إلى النساء، ويدعوه إلى اتخاذ
الإجراءات بحقه^(٩٥):

أقولها لو بلغت ما عسى فالطيب لا يضرب تحت الكسى
قاضيك إن لم تقصه فإقصه أولاً فلا يحكم بين النساء

وعندما لا يجد ابن عنين ما يطعن به في نزاهة القاضي ابن أبي عصرون
يستحيل نقده له ضرباً من العيب، كما يقول هو نفسه^(٩٦):

وما هجوت ابن عصرون أروم به فضلا، ولا نلت من فخر ومن شرف
لكن أجرب فيه خاطري عبثاً كما تجرب بيض الهند في الجيف

وقد توالى على منصب قاضي القضاة في دمشق في النصف الثاني من
القرن السابع الهجري عدد من القضاة الذين لم يتحرروا العدل في أحكامهم، ومن
هؤلاء أحمد بن هبة الله الملقب بالصدر بن سني الدولة، السذي "كان مراعيًا
لأرباب الجاهات كثيرًا"^(٩٧)، فاستشهد النجيب بن الشقيشقة "لأجل جاهه كان النجيب
متصلاً به، وميزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه،
وأنكروا ما فعله"^(٩٨)، لأن النجيب "كان مشهوراً بالكذب ورقصة الدين وغير
ذلك"^{٩٩}. وقد قال أحد الشعراء الشاميين ثلاثة أبيات أنكر فيها بشدة على القاضي
صدر الدين أن يولي رجلاً موصوفاً بانحلال العقيدة والجهل بأحكام الشرع عقد
الأنكحة للمسلمين والأبيات هي^(١٠٠):

جلس الشقيشقة الشقي ليشهدا بأيكما ماذا عدا ممّا بدا ؟!
هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الد جال أم عديم الرجال ذوو الهدى ؟!

عجباً لمحلول العقيدة جاهل بالشرع قد أذنبوا له أن يعقدا

وعندما عدل القاضي الصدر بن سني الدولة جمال الدين بن اليزدي، وخلع عليه خلعة بطيلسان، وأحضره مجلسه مع العدول، وأشهد عليه، قال الشاعر سيف الدين السامري قصيدة زف فيها إلى الناس، بأسلوب تهكمي، نبأ تعديل ابن اليزدي وجلوسه للنظر في أمورهم، عاداً ذلك فرصة سانحة للمجاهرة بالمعاصي والانغماس في اللهو والمجون، لأن ابن اليزدي نفسه يفعل ذلك. يقول^(١٠١):

واصطفاق العيدان عند الأذان	طاب شرب المدام في رمضان
به وترك الصلاة بالقرآن	والزنا واللواط في حرم الله
م يطوف الحانات بالطيلسان	منذ صار اليزدي في سلك الشا
فاق واللائطين بالمردان	وإذا صارت العدالة في الفس
ويكون الصديق لي التلمساني	فجدير بأن أكون نبياً
ضي لأصحابه بنيل الأمان	يا عدول الثام قد سمح القا
وافسقوا والحدوا إذن بأمان	قامروا واشربوا وقودوا ولوطوا
فق فلا حاجة إلى كتمان	وارفعوا عنكم التستر بالفس

وقد كانت هذه الطريقة في النقد بالغة التأثير، فعندما بلغت الأبيات القاضي صدر الدين "عزّ عليه، وأعرض عن اليزدي، ومنعه من الشهادة"^(١٠٢).

وذكر أبو شامة المقدسي في كتابه (الذيل على الروضتين) أنه تولى القضاء في زمانه ثلاثة مشهورون بالفسق والظلم، هم النجم بن الصدر سني الدولة، وكان "حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدياً"^(١٠٣)، وابن الجمال المصري الذي "لم تكن طريقته مستقيمة"^(١٠٤)، والرفيع الجبلي الذي "فعل بالناس الأفاعيل"^(١٠٥).

وقد قال أبو شامة ثلاثة أبيات حصر فيها هؤلاء القضاة ونوابهم، مصوراً
ففاظظتهم، واستشراء فسادهم، وابتلاء الناس بهم^(١٠٦):

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت من القضاة بجهال وأوقاح
بأعجمين ومصنري وصائغهم والأربلي وخياط وفلاح
هم ضعف ستة والنواب كلهم ضعفان، أجزائهم أضعاف أفرح

ولما كثر تعدّي النجم بن الصدر سني الدولة عزل، وأرسل إلى مصر. وقد
صور أبو شامة المقدسي ردود الفعل الشعبية بعد أن سمع الناس بعزل القاضي
ومغادرته دمشق، فقال: "ثم سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة...
والدعاء عليه كثير، والتظلم منه شائع، والدعاوى عليه كثيرة"^(١٠٧). وقد قال
العماد داوود بن الحموي في ذلك قصيدة تمثل فيها مشاعر الدمشقيين الغاضبة
إزاء هذا القاضي المخلوع الذي فتنق الشرع، واحتال على الخلق، وبدد الأموال،
مصوراً شماتة الناس به، وكرهيتهم له، وتقنتهم في ذمه، ومما ورد فيها^(١٠٨):

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا وراح في لجج الإدبار قد غرقا
ناحت عليه الليالي وهي شامتة وعرفته صروف الدهر ما اختلقا
وحدثته الأماني وهي كاذبة بأنه لا يرى بعد النعيم شقا
وجاد بالمال كي تبقى رئاسته وفتق الشرع والتقوى وما رتقا

وألقيت في قلوب الناس بغضته لكنهم قد غدوا في ذمه فرقا
فرقة بقبیح الظلم تذكره وفرقة حلفت بالله قد فسقا
وفرقة سلبته ثوب عصمته بأنه من رباط الدين قد مرقا

وزاد أبو شامة من قوله:

وفرقة وصفته بالخلاعة مع خبث وكبير وكل منهم صدقا

وفي سنة ٦٦٣ هـ اجتمع على ولاية القضاء بدمشق، وفي زمن واحد، أربعة قضاة، وجعل كل واحد منهم قاضي القضاة لأحد المذاهب الأربعة، وقد استهجن أبو شامة المقدسي ذلك قائلاً: "وهذا شيء ما أظنه جرى في زمان سابق" (١٠٩). وكان لقب ثلاثة من القضاة شمس الدين، فاتخذ الشعراء من ذلك مناسبة للتندر والسخرية، كما في قول أحد الظرفاء (١١٠):

أهل دمشق استترابوا من كثرة الحكام
وهم جميع شمسوس وحالهم في ظلام

وقول آخر:

أظلم الشام وقد ولي الحكام شمسوس
ليس فيهم من بيت الحكام علمسا أو يسوس

وقد اتسعت دائرة النقد الاجتماعي في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، فشملت الفقهاء والمتصوفة والوعاظ وأئمة المساجد. فقد استرعى انتباه ابن عنين ما كان يدور في ردهات المسجد الأموي بدمشق من جدل بين بعض الفقهاء، وما صاحب ذلك من انفعالات وارتفاع أصوات، فصور ذلك تصويراً ساخرًا، وذلك إذ يقول (١١١):

البغل والجاموس في جدليهما قد أصبحا عجباً لكل مناظر

برزا عشية يومنا لتجدال
 ما أتقنا غير الصياح كأنما
 لفظ طويل تحست معنى قاصر
 اثنان ما لهما وحقك ثالث
 هذا يقرنيه وذا بالحاسف
 لقنا جدال المرتضى بن عساكر
 كالعقل في عبداللطيف الناظر
 إلا رقاعة مدلويش الشاعر

وقد سخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوف، من الفقهاء الذين يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبههم بالشياطين التي تغل في ذلك الشهر^(١١٢):

ما اعتكاف الفقيه أخذاً بأجر
 هو شهر تغل فيه الشياطين
 بل لحكم قضى به رمضان
 ين، ولا شك أنه شيطان

أما الشاعر حويان القواس فقد سخر من حالات الوجد التي يزعم المتصوفة أنهم يمرّون بها، فقال على طريقتهم متهمًا بهم^(١١٣):

مت في عشقي، ومعشوقي أنا
 غبت عنّي فمتى أجمعني
 أيها السامع تسدري ما الذي
 ففؤادي من فراقني في عنا
 أنا من وجدي مني في فنا
 قلت والله ولا أدري أنا

وكان في ظاهر دمشق خان قد جمع أنواع أسباب الملاذ، ويجري فيه من الفسق والفجور ما لا يحد ولا يوصف، فهدمه الملك الأشرف، وعمره جامعاً، وسمّاه الناس "جامع التوبة". وقد ولي الأشرف الجمال السبتي إمامة الجامع، وكان يلعب في صباه "بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى الجعانة"، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي "وكان يتهم باستعمال الشراب"^(١١٤)، وكان صاحب دمشق آنذاك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكتب إليه ابن الزويتينة الشاعر أبياتاً، على لسان المسجد، يذم فيها أخلاق الإمام، ويشرح له ما أصابه من ضرر،

حائثاً، بأسلوب ساخر، على رده إلى حالته الأولى^(١١٥):

يا ملكاً أوضح الحـ	قَ لدينا وأبائنا
جامع التوبة قد قلدنا	سي منك أماننا
قال: قُلْ للملك الصبا	لح أعلى الله شأنه
يا عماد الدين يا من	حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ضـ	رَ وبؤس وإهانة
لي خطيباً واسطى	عشق الخمس ديانة
والذي قد كان من قبـ	ل يغني بجفاننا
فكما نحن فما زلنا	اء، وما نبرح حاننا
ردني للنمط الأو	ل، واسبق ضماننا

الدراسة الفنية

أخذ كثير من شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية شكل مقطوعات قصيرة تعبّر عن فكرة واحدة بإحكام، بحيث يشعر القارئ عند الانتهاء منها بالاكتماء. وهذه المقطوعات ليست أجزاء من قصائد ضاع أكثرها، أو اختيارات من قصائد طويلة، وإنما هي مقطوعات في صورتها الأصلية التي قالها الشعراء.

وتتخذ هذه المقطوعات صورتين رئيسيتين، الأولى أن تكون المقطوعة في بيتين لا يمكن الفصل بينهما، ويعبران عن معنى تام لا يقبل التطوير، كما في قول ابن المسجف العسقلاني يسجل بعض الظواهر التي أنكرها الناس في عصره في دمشق^(١١٦):

ثلاثة أشياء تفلن بجلق على كل قلب بالدليل المحقق
ترهد قاضينا الخوي وطرحه الشه باب وإسلام الحكيم الموفق

والصورة الثانية أن تكون المقطوعة في ثلاثة أبيات أو أكثر تتطور حتى تبلغ نهاية مرسومة لا تتجاوزها لتمام المعنى بها، كما في الأبيات التالية التي كتبها شهاب الدين بن غانم إلى جمال الدين يشكو له رجلاً يدعى السيف بن المغيزل^(١١٧):

مولاي قاضي القضاة يا من له على العبد ألف مينة
إليك أشكو قريين سوء بليت منه بألف محنة
شهرته بيننا اعتداء أغمده فالسيف سيف فتنة

وقد لا يأتي السياق مكتملاً في المقطوعة، وإنما يترك الشاعر للقارئ إتمامه، كما في قول ابن الساعاتي في هجاء ابن سناء الملك^(١١٨):

أتعبتُ بي غائباً يا سعيد أما لو حضرت لأدبت جنك
ولست أقول هجاء يشين يكفيك علمك يا مجد أنك....

وقول ابن المهنا في الأبيات التالية التي أنفذها إلى قاضي حلب يشكو فيها نائبه وكتابه^(١١٩):

لا عجب أن خرب الشام أو أقوت مغائبه ولا غرو
قد أصبح المجد به حاكماً وأصبح المنشى له صنو
مولاي، محيي الدين، غيرهما عنا، فتحوى شكرنا أو....

وقد تكتفي المقطوعة بالإيماء إلى المعنى دون ذكره، فتترك فسي نفس القارئ أثراً مسترسلاً، كما في قول ابن عنين يخاطب الملك المعظم عيسى وقد أرهق الناس بنزح ماء خندق القلعة بدمشق^(١٢٠):

أرح من نزح ماء البئر يوماً فقد أفضى إلى تعب وعي
مر القاضي بوضع يديه فيه وقد أضحى كراس الدولعي

وتمتاز المقطوعات الهجائية بالإيجاز والتكثيف مما يمنحها حدة لاذعة، كما في قول سيف الدين السامري يهجو أهل دمشق^(١٢١):

قَبَّحَ اللَّهُ كلَّ من بدمشق من أصبحنا سوى ابن سعيد
فهو على شكه وما يتعاطا ه من اللوم أصلح الموجد

وتستعين بعض المقطوعات بالسخرية القائمة على مفاجأة القارئ بمعنى ظريف أو صورة طريفة، كما في قول ابن عنين يتهم بشرف الدين يعقوب الذي كان يُسمع الحديث بجامع دمشق^(١٢٢):

رأيت النبي عليه السلام فقميت إليه وقبالتة
فقال: أيعقوب يروي الحديث ث، فقلت: نعم، قال: ما قلتة

وقد تتخذ المقطوعة شكل دعاية يحرص الشاعر على إنهاؤها بطريقة فكاهية ترسم على شفهي القارئ إذا ما انتهى من قراءتها، ابتسامة خفيفة، كما في قول شهاب الدين التلعفري في صديق له يدعى سليمان، وقد رمته بغلته وداسته^(١٢٣):

سمعت لابن سليمان وبغلته أضحوكة، خلتها إحدى قصائده
قالوا: رمته وداست بالنعال على قفاه، قلت: هذا من عوائده
لأنها فعلت في حق والدها ما كان يفعله في حق والده

وتبدو بعض المفاكحات نكتة بسيطة ساذجة، ولكنها هادفة، كما في قول ابن المسجف في رجل يلقب بدر الدين، ويستطرد إلى نفسه^(١٢٤):

قالوا: تلقب بدر الدين مفتخرا نجل الجنوبي من قد زين الأما
فقلت: لا تعجبوا منه، فذا لقب وقف على كل نحس، والدليل أنا

ولابن عنين مقطوعات كثيرة تشتمل على الفكاهة الحلوة، والنكتة البارعة، وقد أدرك الإقدمون ذلك، فأشاروا إلى أن ابن عنين كان يقصد من بعض هجائه "الدعاية والإحماض، لا الغيبة وتلب الأعراض"^(١٢٥)، كما في الأبيات التالية التي أضفت عليها التورية لونا هزلياً خفيفاً، وقد قالها في الشريف الكحال الذي أحب

غلاماً ينبز بـ "الجميل" (١٢٦):

فَدَيْتَكَ قَلَّ لِلشَّرِيفِ الشَّهَابِ
تَوَالِيِ الحَنَابِلَةِ القَانَانِيِّينَ
وَتَزَعَمُ أَنَّكَ مِنْ عِترَةِ الوَصْلِ
وَإِنْ شَاطِطُ غَيْظاً فَلَا تَحْتَقِلْ
بِأَنَّ يَزِيداً إِمَامَ عَسَدِلْ
يَ، وَأَنْتَ تَحِبُّ الجَمِيلَ !!

وقد تكون المقطوعة لدى ابن عنين في صورة حكاية بسيطة تُتسم بالحركة الصاعدة التي تصل إلى نهاية محددة تقف عندها، ويتم المعنى بها، كما في الأبيات الآتية التي قالها في بدر الدين مودود سُحنة دمشق (١٢٧):

جاء الشتاء وليس عندي جبة
فتصفحت لما قراها حبة
وشكا نياط فؤاده وحرارة
وغدت فرائصه تهز كأنها
ينسى فيسكن ما به وتعوده الذكـ
فشكرت ربي لو قراها جبة
وخرجت أمشي القهقري متسئراً
فطفقت أطلب دار بدر الدين
فبدا يواصل زفيرة بأنين
في قلبه تربي على سجين
سعف عزته الريح في تشرين
رى، فيصرع صرعة المجنون
لقتائه عمداً بلا سكين
بقرون حاجبه الزكي ابسن القيني

أما الهجاء الذي كان في قصائد طويلة فهو قليل في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية، ومن أمثلة ذلك قصيدة لأبي شامة قالها في هجاء القانمين على أموال الوقف في دمشق، وقد مرت بنا بعض أبياتها، وقصيدة لابن دنيير قالها في هجاء القاضي حجة الدين بن الشهرزوري، وقد استشهد ببعض أبياتها في الحديث عن هجاء القضاة، وقصيدة ابن عنين التي وسمها بـ "مقراض الأعراض"، وهجا بها عدداً من وجوه دمشق. غير أن ابن منير قد فاق هؤلاء في قدرته على إطالة قصائده الهجائية، ولعل هذا يرتبط بموهبة الشاعر، بالإضافة

إلى الهدف الذي كان يرمي إليه من هذا الهجاء المطول. من ذلك قصيدته التي
قالها في هجاء القاضي الأعز، ومطلعها^(١٢٨):

يا وزير الشام دعوة مظلوم م رجا من غلاك كَشَف الظلامه

وقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، إذ بلغ عدد أبياتها مئة وأربعة
وعشرين بيتاً. ولعل ميل الشاعر إلى الأسلوب الوصفي هو الذي أتاح له هذا
التطويل، كما أتاح له أن يحافظ على وحدة القصيدة ويدفع عنها التشتت، فالقصيدة
على طولها، فيها قدر كبير من الحيوية المستمدة من تدرج الشاعر في الأفكار
والمعاني، والبراعة في التصوير وإيثار اللغة البسيطة الواضحة. فبعد أن استهل
ابن منير القصيدة بأبيات تظلم فيها إلى وزير الشام آنذاك من القاضي الأعز،
يأخذ في وصف عمّة القاضي التي كانت مزينة ببعض الرسوم. بيد أن ابن منير
لم يقف عند حدود ما كان مرسومياً فعلاً، وإنما راح يستدعي أصنافاً شتى من هذه
الصور، ويخيل للقارئ أنها مرسومة على العمّة. وقد استغرق ذلك حوالي ستين
بيتاً من القصيدة، تفنّن فيها ابن منير تفنناً يدلّ على براعته في استغلال ثقافته
المتنوعة في تشكيل معاني شعره وصوره. أجتزئ من ذلك قوله:

كعشـرِ عشـرِ القلامـة	عمّة تملأ الفضاء على وجه ضئيل
وجعانا بيت الدنيا أقلامه	لو تخذنا البحر المحيط مداداً
من شوابيرها يد الرقامة	لم تمثل معشار ما صورت بيـ
رتع بين أثلة وثمامه	من وحوش رواتع وظباء
وهواها وقحبة مستهامه	وصنوف العشاق من عاهر تشكـ
س وفوز والقس مع سلامة	مثل قيس عشيق لبنى وعبا
ب ونجد ومكة وتهامه	وملوك البلاد في الشرق والغـ
ق وأورى بصدقهِ أعلامه	والنبيون كل من أظهر الحـ

فعلينا أبو الخلائق قد عوّ
وعليها قابيل يدفن هايبــــــــــــــــ
وعليها نوح وقد صنع الفلــــــــــــــــ
وعليها موسى يناجي من الطّو
وعليها يعقوب يشكو إلى الله
ض دار الدنيا بدار المقامة
ل وقد بآء بعده بالندامة
ك وأبدي في بنّيها إحكامه
ر إليه السّماء يبغى كلامه
بنيته وبثّته وغرامه

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو، فيذكر إبراهيم الخليل وهو يكسّر الأصنام، وشعبياً وقد أقعده المرض، ويوسف وقد جدّ في الهرب من امرأة العزيز... إلى غير ذلك من الصور المستوحاة من القصص القرآني والتّاريخ الإسلامي وغير الإسلامي... ومع أنّ هذا التّكثّر من الصور كان يصدر عن رغبة في السخرية من القاضي الأعز، فإنه كذلك يدل على رغبة ابن منير في استعراض ثقافته المتنوعة.

وبعد أن انتهى الشاعر من تصوير القاضي الأعزّ في هيئة لا تصلح أن تكون لقاض، يخلص إلى تصوير استخفاف الناس بهذا القاضي، وتملّقهم إياه بالمدح الكاذب، لعلمهم ينالون الحظوة عنده:

مكّن الله درّتي من أعالي
كلّ فسّل إذا راه تــــردى
قائلاً يا عذير حاتم الطــــا
يا مليح الشباب يا أنضر النــــا
كلّ هذا نصّب على الخرب اليبــــــــــــــــ
وهو إذ ذاك لا يريد سوى تيبــــــــــــــــ
يصطفي بعضهم ويبعد بعضا
سفل يدعون فيه الإمامة
خاضعاً راعياً ذليلاً أمامه
نيّ فيما يولي وكعصب بسن مامه
س، ويا أحسن البريّة قامه
ست، ليفنوا خلقانسه وطعامه
سبه عليهم وسطوة وعرامة
لسيرى ذا إهانة وكرامة

وإذا كان ابن منير قد تناول في الأبيات السابقة صورا من العلاقات الظاهرة بين القاضي الأعزّ ومن يأتي إلى مجلسه، فإنه تحدّث في الأبيات التالية عن طائفة من العلاقات الشاذة الخفية بين هذا القاضي وبعض حاشيته، بله علاقتهم بأخته، مقدّعا في الهجاء، مستعملا عبارات وصورا فاحشة، يجلّ المقام عن ذكرها، وقد تدرّج الشاعر في هذا الهجاء تدرّجا يشعر بالوصول إلى نهاية القصيدة، فمازج بينه وبين ذمّ الدهر الذي قدّم أمثال هؤلاء، وأخره على فضله، شاكيا من الحاجة وفقدان الصديق، محذّرا القاضي وأتباعه بأن الأيام دول:

يا شباغ البطون لا بدّ من جو	ع بليك البطين منكم لجامعة
لا تغرّكنم مهاندة الدهـ	ر فما زال منسهرأ من أنامة
كل شيء إذا تناهى إلى حـ	دّ تمام فالنقص يتلو تمامة

وهكذا كانت قصيدة ابن منير الطرابلسي، كغيرها من القصائد الهجائية، تجمع بين الطول ووحدة الموضوع، فالقصيدة ذات موضوع واحد هو الهجاء، وهدف واحد هو السخرية من القاضي الأعزّ وبيان بطلان أحكامه، ويسري فيها شعور واحد هو النّمة على هذا القاضي وأمثاله، لذا أنهى الشاعر قصيدته كما بدأها، ولم تخالف نهايتها بقية أجزائها، فاطرد فيها النسق، وتوالى المعنى، ليحقّق الغاية المرسومة لها.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن لغة الهجاء وأساليبه، فإنه يلاحظ أن الشعراء، حتّى يكفلوا لأهاجيهم سرعة التأثير والذّيع بين الناس، نظموا في لغة سهلة بسيطة واضحة، تقترب من اللغة المحكيّة اقترابا شديدا، من ذلك قول ابن الساعاتي يهجو رجلا يدعى صالحا، مستعملا الصيغ النثرية في بناء بيتيه^(١٢٩):

أسائلتي عن صالح إن صالحا	وإن نال حظا من غلى وتقدّم
له إفك مداح، وأبنة كساتب	وكديّة صوفي، وعقل معلّم

ويقترَب العرقلَة الكلبِي في أهاجِيه من اللغَة المحكِيَة اقتراباً شديداً، حتَّى
لتخلو - أحياناً - من الفنّ، كما في قوله يهجو وحيشاً الأسدي^(١٣٠):

لا بَارِك اللّٰه فِى وَحِيشٍ فَإِنَّهُ مَكْدَرٌ لِلْعِيشِ
كَمْ قَالَ، لَا قَلِيلَ غَيْرِ نَابِهِ آيَاتِ شَعْرِ كَيْبُوتِ الْخَيْشِ

وتكثر الألفاظ العامية في هجاء ابن عنين، مثل "العوانسي، والعلق، ودق
حنك، وما قصر (بمعنى أصاب وأحسن)، والصفعان، والتجمعس"^(١٣١). كما
استعمل بعض التعابير التي تستعملها العامة في دمشق مثل "اسكتي يا فلانه" في
قوله^(١٣٢):

زعموا أَنَّهُ حَفِظَ عَلَى الْمَا لِ أَمِينٍ، قَلت: "اسكتي يا فلانه..".

ولا تكاد تخرج عبارة "يا ابن الدجاجة" عن الشتائم التي تتردد على السنة
العامة، وذلك في قوله^(١٣٣):

يا ابن الدجاجة كلّ الناس كان لها ديكاً، فأنت ابن من حتّى أناديكاً!؟

ويرد ابن المسجف العسقلاني في هجائه بعض الشتائم البذيئة التي تلقىها
العامة في عصره، كما في الشطر الثاني من البيت الأخير^(١٣٤):

قالوا: علام رفضت الشعر مطرحاً فقلت: من قلة الإنصاف في زمني
لا المدح يورثني مالا أسر به ولا الهجاء إلى سؤلي يقرّني
حتى يقال أديب شاعر فطن جرّ أم كلّ أديب شاعر فطن

وكما في عبارة "لا يساوون نعلًا" في قوله يهجو جماعة في دمشق (١٣٥):

خمس تيجان لا يساوون نعلًا رثًا في قيمة ولا مقدار
الشكيرير والأعيور والقصا ر وابن المصري وابن الحوار

ولا يخفى على القارئ الخطأ الذي وقع فيه الشاعر، إذ ذكر العدد مع
المعدود المذكور في البيت الأول.

ومع أن لغة الهجاء تميل بوجه عام إلى البساطة والوضوح، والاستتكار
من التعابير الشعبية، فإن بعض الشعراء استغلوا معارفهم وثقافتهم في التعبير
عن معانيهم، وتصوير مهجوتهم. فقد استوحى الشعراء بعض آيات القرآن
الكريم، ووجهوها على نحو يخدم مقاصدهم الهجائية، كما في قول كمال الدين بن
الأعمى يذم أحد الحمّامات، ويتذمّر من القائم عليه (١٣٦):

كلّما قلت: قد أطلت عذابي قال لي: أخسأ فيه ولا تتكلم
قلت لَمّا رأيتُه يتلظّي ربّنا اصرف عنّا عذاب جهنّم

ويفيد ابن عنين من القصص القرآنيّ حين ينتقد الأوضاع في مدينة دمشق
لَمّا فتحها الملك الكامل محمّد بعد الملك المعظم عيسى، وأعطاه الملك الأشرف
موسى، وذلك إذ يقول (١٣٧):

وكنا نرجي بعد عيسى محمّدا لينقذنا من لاعج الضرّ والبلى
فأوقعنا في تيه موسى فكنا حيارى، ولا من لدينا ولا سلوى

ويتصرف شهاب الدين بن غانم بالحديث النبويّ الشريف الذي يتحدّث عن
فضائل شهر رمضان حين يهجو أحد المتصوّفة في قوله (١٣٨):

ما اعتكاف الفقيه أخذاً بساجرٍ بل لحكم قضى به رمضانُ
هو شهر تغلّ فيه الشيا طين، ولا شك أنه شيطان

وضمن الشعراء أهاجيهم بعض الأبيات التي قالها شعراء سابقون، كما في أبيات العرقله الكلبي التي هجا بها أبا الحكم الأندلسي، حيث ضمن مقطوعته بيتاً للمتنبّي، ووضعه في موضعه المناسب من المقطوعة، وقد سبق أن استشهد بها في الحديث عن التهاجي بين الشعراء.

ويستعير ابن عنين بيتين لجميل بن معمر العذري، ويجعلهما على لسان المهجّو كمال الدين الشهرزوري إمعاناً في السخرية منه، وذلك في قوله^(١٣٩):

دخلت على ابن الشهرزوري ليلة وقد أغلقت دون الوزير المغالِق
فعاينته ولهان يرطّل فيشّة وينشدها والخذ بالدمع غارق
"وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم صدق الواشون أنت حبيبة إليّ، وإن لم تصف منك خلائِق"

ويتكئ ابن منير الطرابلسي على ثقافته بالعربية: نحواً وصرفاً وإملاء وعروضاً حين يهجو القاضي الأعزّ في قصيدته الزائية، ومما ورد فيها قوله يتحاور مع هذا القاضي، ويفحش في ذمّه وتلبه^(١٤٠):

صاح، يا نصف سيبويه لقد أحـ رزت علم الإعراب في غير حرز
أنا خفض، وأنت رفع، وإذا (...) نصب، فلم تخف همزي
قد صحبت النحاة قبلك واستو عبت ما كان من معمي ولغز
وأراهم قد أدخلوا ألف الوصل علي (...) وأنت كالمشمنز
قلت: هناك للضرورة، فاستضحـ لك تيها، وقال كالمستهزي

فاحسبنا ضرورة واتبع القسو م، فقد بان فيك معنى التنزي

وقد استعمل الشعراء الشاميون التصوير البياني وغير البياني في التعبير عن معانيهم وأفكارهم، وتهدف هذه الصورة بصورة عامة إلى التشويه، لذلك كثرت الصور المنقّرة والقبيحة، كما في قول نصر الهيتي يهجو قوماً لم يجزلوا له العطاء، ويصف رقاعهم التي تضمنت مرسوم ذلك، مستعيراً لها طائفة من الصور التي ينفر منها الذوق السوي^(١٤١):

رقاعهم تملأ الدنيا بما رحبت	ملاً من المين والبهتان والزور
تطوى وتتشر والأدناس تشملها	في كف كل سخين العين معرور
كأنها، وعطاياهم مسطرة	فيها، لفائف ميت غير منشور
أو ما يقلعه البيطار من خرق	عن كل أعجف غث اللحم معقور
فما لها مثبه في كل مخزية	إلا مناديل ربّات المواخير
لا تطرحها إذا جاءت فإن لها	نفعاً، ولكن لترقيع الطنابير

وواضح أن الصور في الأبيات السابقة صور جزئية تحقق الازدراء بالمهجو، وقد استرشد الشاعر هذه الصور من مصادر تحقق له هذا الهدف، فصور رقاع هؤلاء القوم تمتلئ كذباً وبهتاناً وزوراً، وجعلها ملطخة بالأدناس والأوساخ، وشبهها بلفائف ميت، وبالخرق التي يعالج بها البيطار حيواناته المريضة، وبمناديل ربّات المواخير..

وقد تعددت المصادر التي استرشد الشعراء صورهم منها، فقد استوحى فتيان الشاغوري القصص القرآني في الأبيات التي انتقد فيها الملك الأمجد بهرام شاه، وأخذ عليه استيزاره مهذب الدين السامري، وقد سبق الاستشهاد بها. واستوحى ابن عنين قوله تعالى "ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها

رجوما للشياطين»^(١٤٢) في البيتين التاليين اللذين هجا بهما الرشيد النابلسي^(١٤٣):

شكا شِعْري إليّ وقال تهجو بمثلي عرض ذا الكلب اللئيم
فقلت له: تسلّ فربّ نجم هوى في إثر شيطان رجيّم

واستمَد الشعراء بعض صورهم من أحداث التاريخ الإسلامي، فقد التفت العرقلَة الكلبِي، مثلاً إلى الأحداث التي جرت بين عليّ ومعاوية، وذلك حين تبرّم من البواب الذي منعه من الدخول على أقرباء الملك الصالح بن رزيك^(١٤٤):

على بابكم يسا آل رزيك شاعر فنوع كفاء منكم الود والبشرُ
وقد رده البواب جهلاً بوجهه "كما ردها يوماً بسوءته عمرو"
وحتى حسين، وهو سيّد مذهبي زوى وجهه عنّي كأنني الشمر

واستعار الشعراء بعض صورهم من التاريخ الأدبي، كما في قول ابن الساعاتي يصور حبة أحد الأمراء للمدح والثناء، وأسفه على ما يذهب من ماله أو طعامه إذا زاره أحد، فيقرنه - على سبيل التهكم والسخرية - بعروة بن حزام ومجنون ليلي^(١٤٥):

مظهر بالمديح وإن كان مجساً نأ تباريح عروة بن حزام
وهو يبكي بكاء مجنون ليلي ساعة الإذن أو غداة الطعام

وانتقاصاً من أقدار المهجويين أكثر الشعراء من صور الحيوانات والحشرات، إذ شَبهوهم بالبهيمة والتمس والكلب والعجل والذئب.... من ذلك قول ابن الساعاتي يُزري بأحد الحكّام ويفضّل عليه القرد في الهيئة والتكوين^(١٤٦):

لو كنت في زمن تقادم عهده لذكرت في طه وفي ياسين
وتظن أنك ذو جمال بأرع والقرد أحسن منك في التكوين

ويشبه ابن الساعاتي أحد الثقلاء بالعجل في الجهل وقلة العقل، والذباب في
التطفل، والنمل في نقل الحديد. يقول (١٤٧):

تجاوز دنيات العجيل وجهه فما يهتدي عجل يكون بلا عقل
أحط على مأكوله من ذبابة وأنقل فيهم للحديث من النمل

وتكثر الصور المستمدة من الطبيعة في شعر الهجاء، فعندما هجا ابن
المسجف العسقلاني جماعة من أصحابه شبههم بالسراب في قلة النفع، وانعدام
الفائدة. يقول (١٤٨):

هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل، وهم عند الشدائد آل

ويقرن ابن منير الطرابلسي طباع أهل دمشق بجبالهم في الغلظة والقسوة.
يقول (١٤٩):

وطباعهم كجبالهم جبلة وقادت من حجر

ويشبه كمال الدين بن الأعمى صحن حلوة أهدها إليه أصحابه بأرض
السماء في اليبس والصلابة. يقول (١٥٠):

إن في صحنك المسمى حلوه رقة تورث القلوب قساوه
كم حفرنا قلم نجد غير أرض الصحا من ييسأ كمثل أرض السماء

واستغل الشعراء العيوب الخلقية لمهجوهم، واستخرجوا منها صوراً
طريفة على شاكلة ابن دنيير في القاضي حجة الدين بن الشهرزوري^(١٥١):

وكنّا عمالنا للمظفر دعوة ليحضر فيها عندنا يوم الاثنين
فجاء، ولكنّي رأيت عجيبة أتى أنه من قبل ذلك بيومين

وقد تميّز ابن عنين بطريقة في التصوير لم توجد عند غيره من الشعراء،
إذ كان يشبه بعض مهجويه ببعض، ويقارن بينهم مقارنة هزلية، كما في قوله
يهجو الخطيب الدولعي، ويعارض بينه وبين أحد المفسرين^(١٥٢):

طوّلت يا دولعيّ فقصّر وأنت في غير ذا مفسّر
خطابة كلّها خطوب وبعضها للورى منقّر
تظّل تهذي ولست تدري كأنك المغربيّ المفسّر

والصورة في شعر الهجاء تتنوع بين صور جزئية تقوم على تطلب التشابه
الظاهري بين طرفي الصورة، وصور كلية ترسم منظراً متكاملأ، أو تستقصي
ملامح مشهد محدد. والصورة الجزئية هي الغالبة على هذا الشعر، وقد مرّ بنا
كثير منها، وأمّا الصور الكلية فهي قليلة، وقد توّسل الشعراء إلى رسمها بالحركة
والتجسيد، كما في قول ابن خروف يهجو الطبيب الدخوار، ويجسد طبّه سيفاً راح
يحمّله ويهاجم به العباد الذين أمعنوا في الهرب والتخفي منه، ولكن أبواب النجاة
سدّت في وجوههم^(١٥٣):

طبّع المَهْدَبَ طَبَّه سيفاً وصال على المهج
باب السّلام لا يُرى منسه ولا باب الفرج

وقد نجد بعض الشعراء يستعمل التشخيص في رسم صورته، فقد مرّت بنا الأبيات التي رفعها ابن الزويتينة إلى الملك الصالح يشكو فيها فساد القائمين على أحد الجوامع، وقد شخص الشاعر هذا الجامع وصوره إنساناً يتظلم ويشكو إلى الملك، ويرجوّه أن يدفع الفساد عنه، أو يعيده إلى ما كان عليه. وهذا ابن عنين يصوّر الجامع الأموي، وقد سلسلت أبوابه، بإنسان أصابه مس، فشدّ بالوثاق^(١٥٤):

لَمَّا رَأَى الْجَامِعَ أَمْوَالَهُ مَأْكُولَةً مَا بَيْنَ نَوَابِهِ
جُنَّ فَمِنْ خَوْفٍ عَلَيْهِ غَدَا مَسْلُوساً مِنْ كُلِّ أَبْوَابِهِ

والصورة في شعر الهجاء عامة بسيطة واضحة قريبة المتناول، تقع في حدود مدركات الناس وحواسهم، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع، فالهجاء، ولا سيّما إذا كان في شكل مقطوعات، يرمي إلى التأثير المباشر في نفوس المهجّوين، ومن ثمّ فإنّ التفنّن في الصورة قد يحدّ من هذا التأثير، لأنّ الصورة الشعرية بحاجة إلى قدر من التأمل لفهم دلالاتها واستيعاب معناها.

خاتمة

تمّ في الصفحات السابقة دراسة شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وقد بينت هذه الدراسة أن هذا الشعر نما وتكاثر، وأنّ بواعث القول فيه تعدّدت، واتّجاهاته تنوّعت.

وأبرزت الدراسة الدور الذي اضطلع به الشعراء الشاميون في تطهير المجتمع الشاميّ من مظاهر الفساد الخلقي والاجتماعي، وذلك بتقبيح هذه المظاهر، وإبرازها في صور تدعو إلى إنكارها والابتعاد عنها.

وأوضحت الدراسة أهميّة شعر الهجاء في دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فهو يصوّر التنافس بين الشعراء وبواعثه الشخصية والمذهبية، ويصف فقر بعض الشعراء وسوء أحوالهم الاقتصادية، ويرسم صوراً طريفة لبعض مظاهر السلوك اليوميّ في المدن الشاميّة، ويكشف عن طائفة من التعديّات التي كانت تصدر عن بعض الحكام والقضاة وغيرهم من القائمين على شؤون الرعيّة.

وأخيراً، بينت الدراسة أنّ جُلّ شعر الهجاء كان في مقطوعات قصيرة، وأنّ هذا الشعر أثر اللغة السهلة القريبة، والصورة الواضحة الداتية.

الحواشي:

- (١) مسائلك الأبصار، (ميكروفللم) ١٥: ٣٠٥، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٢٠٥.
- (٢) عقود الجمان (ميكروفللم) ٣: ١٨٩.
- (٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم العراق) ١/٣: ١٣٦.
- (٤) عقود الجمان (ميكروفللم) ٦: ١٩٩، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٣٥٧.
- (٥) المصدر السابق ٦: ٥٣٦.
- (٦) المصدر السابق ٧: ٤٤.
- (٧) المصدر السابق ٧: ٢٤٣.
- (٨) المصدر السابق ٣: ٦٧.
- (٩) فوات الوفيات ١: ١٣٤.
- (١٠) المصدر السابق ٢: ٢٨٢.
- (١١) ثمة شريط مصور (ميكروفللم) في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية يحتوي على بعض أشعار ابن منير، وهو صورة عن مخطوط رقم ٢١٠ بمكتبة أمبروزيانا.
- (١٢) الكواكب الدرية: ١٧٠.
- (١٣) انظر: الوافي بالوفيات ١: ٤٢٧-٤٢٨، الذيل على الروضتين: ١٨١.
- (١٤) فوات الوفيات ٢: ١٩٤.
- (١٥) انظر الذيل على الروضتين: ١٤٨، ٢١١، فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.
- (١٦) الخريدة، قسم الشام ١: ٧٦، ٧٩.
- (١٧) المصدر السابق ١: ٧٦.
- (١٨) شعر ابن القيسراني: ٩٠.
- (١٩) الحشرية: هم الذين يباثرون مال من يموت، وليس له ولد. صبح الأعشى ٣: ٤٦٠.
- (٢٠) جمهرة الإسلام (ميكروفللم) ١: ٨٢.
- (٢١) شعر ابن منير (ميكروفللم): ١٥٠.
- (٢٢) ديوان ابن منير: ١٣٧.
- (٢٣) الخريدة قسم العراق ١/٣: ١٣٦.

- (٢٤) عيون الأنبياء: ١٦٥.
- (٢٥) المصدر السابق: ٦١٥.
- (٢٦) المصدر السابق: ٦١٦.
- (٢٧) المصدر السابق: ٦١٤.
- (٢٨) المصدر السابق: ٦٢٥.
- (٢٩) عيون التواريخ ١٢: ٤٨٢.
- (٣٠) عقود الجمال (ميكرو فلم) ١: ٣٨٣.
- (٣١) ديوان ابن عنين: ١٨٨.
- (٣٢) انظر فصولاً من هذه الرسالة في معجم الأدياء ٥: ٢٢١٨.
- (٣٣) فوات الوفيات ٣: ١٩٤.
- (٣٤) الوافي بالوفيات ٢٢: ١٩٦.
- (٣٥) ديوان العرقلة: ٩٤.
- (٣٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٣.
- (٣٧) المصدر السابق ٢: ٢٨٤.
- (٣٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٥٤.
- (٣٩) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (٤٠) بغية الطلب ٧: ٢٠٥.
- (٤١) ديوان العرقلة: ٦٣.
- (٤٢) انظر الخريدة قسم الشام ٢: ١٨٥.
- (٤٣) عيون الأنبياء: ٧١٧.
- (٤٤) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.
- (٤٥) عيون الأنبياء: ٦٥١.
- (٤٦) المصدر السابق: ٦٥٢.
- (٤٧) ديوان ابن عنين: ١٧٩.
- (٤٨) عيون الأنبياء: ٦٥٣.
- (٤٩) ديوان ابن عنين: ١٩٤.

- (٥٠) الوافي بالوفيات ٩ : ٤٠ .
- (٥١) ديوان ابن عنين: ١٣٣ .
- (٥٢) فوات الوفيات ١ : ١٣٥ .
- (٥٣) الخريدة، قسم الشام ٢ : ٣٨٧ .
- (٥٤) عيون التواريخ ١٢ : ٣٣٦ .
- (٥٥) المصدر السابق ١٢ : ٣٣٦ .
- (٥٦) ديوان ابن عنين: ٢٣٩ .
- (٥٧) ديوان العرقلة: ٣٥ .
- (٥٨) فوات الوفيات ٢ : ٢٨٥ .
- (٥٩) انظر حديثاً عن مدح المدن في كتاب: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: ٢٨٨ .
- (٦٠) ديوان ابن منير: ١٦٧ .
- (٦١) ديوان ابن عنين: ٢٣٠ .
- (٦٢) الخريدة، قسم العراق ١/٣ : ١٢٤ .
- (٦٣) ديوان ابن دنيير: ٦٠٦، وللاستزادة انظر: ٥٩، ١٩٨، ٦٥٦ .
- (٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٧٠ .
- (٦٥) معجم الأدياء ٤ : ١٧٠٣ .
- (٦٦) فوات الوفيات ٣ : ٨٧ .
- (٦٧) المصدر السابق ٣ : ٩١ .
- (٦٨) المصدر السابق ١ : ٣٠٧ .
- (٦٩) بغية الطلب ٩ : ٤٢٤٣ .
- (٧٠) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا "وعشو يمنح" فلا يستقيم به الوزن والمعنى، والتصحيح من كتاب: شذرات من كتب مفقودة: ٣٩٩ .
- (٧١) فوات الوفيات ٣ : ٣٥٨ .
- (٧٢) المصدر السابق ١ : ١٣٩ .
- (٧٣) عيون الأنبياء: ٧٢١ .

- (٧٤) ديوان فتيان: ٣٥٩.
- (٧٥) تآلي كتاب وفيات الأعيان: ١٤٢.
- (٧٦) فوات الوفيات ٢: ١٣٣.
- (٧٧) الخريدة، قسم الشام ٢: ٢٧٣.
- (٧٨) ديوان ابن دنيير: ٥١٦.
- (٧٩) المصدر السابق: ٦٠٩.
- (٨٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ٢٣٣.
- (٨١) ديوان ابن الماعاني ١: ١٤١.
- (٨٢) ديوان ابن عنين: ٢٠٨.
- (٨٣) المصدر السابق: ٢٠٣.
- (٨٤) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (٨٥) المصدر السابق: ٩٤.
- (٨٦) ديوان ابن منير: ١٤٦.
- (٨٧) ديوان فتيان: ١٢١.
- (٨٨) الذيل على الروضتين: ٢٢٢.
- (٨٩) فوات الوفيات: ١٣٤.
- (٩٠) ديوان ابن عنين: ١٤٣.
- (٩١) المصدر السابق: ٢٣٥، وتنسب الأبيات كذلك إلى ابن المسجف العسقلاني: فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.
- (٩٢) المصدر السابق: ٢٢١.
- (٩٣) ديوان ابن دنيير: ٥٧٧.
- (٩٤) الذيل على الروضتين: ١١٠.
- (٩٥) ديوان ابن عنين: ١٢١.
- (٩٦) المصدر السابق: ١٩١.
- (٩٧) الذيل على الروضتين: ٢٠١.
- (٩٨) المصدر السابق: ٢٠١.

-
- (٩٩) المصدر السابق: ٢٠١.
- (١٠٠) المصدر السابق: ٢٠١، ولم يذكر أبو شامة اسم الشاعر.
- (١٠١) فوات الوفيات ١: ١٣٨.
- (١٠٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.
- (١٠٣) الذيل على الروضتين: ٢١٤.
- (١٠٤) المصدر السابق: ١٤٨.
- (١٠٥) فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.
- (١٠٦) الذيل على الروضتين: ٢١٤.
- (١٠٧) المصدر السابق: ٢١٤.
- (١٠٨) المصدر السابق: ٢١٥.
- (١٠٩) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (١١٠) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (١١١) ديوان ابن عنين: ٢٠٥.
- (١١٢) فوات الوفيات ١: ١٢٧.
- (١١٣) المصدر السابق ١: ٢٠٣.
- (١١٤) وفيات الأعيان ٥: ٣٣٤-٣٣٥.
- (١١٥) فوات الوفيات ٢: ٣١٩.
- (١١٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (١١٧) المصدر السابق ١: ١٠٣.
- (١١٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٣.
- (١١٩) الخريدة، قسم الشام ٢: ٩٨.
- (١٢٠) ديوان ابن عنين: ٢٣٥.
- (١٢١) فوات الوفيات ١: ١٣٦.
- (١٢٢) ديوان ابن عنين: ١٣٧.
- (١٢٣) فوات الوفيات ١: ١٤٧.
- (١٢٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.

- (١٢٥) عقود الحمان (ميكروفللم) ٦: ٢٠٣.
- (١٢٦) ديوان ابن عنين: ١٣٥.
- (١٢٧) المصدر السابق: ٢٠٣.
- (١٢٨) شعر ابن منير (ميكروفللم): ١٧٦.
- (١٢٩) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٠.
- (١٣٠) ديوان العرقلة: ٥٦.
- (١٣١) ديوان ابن عنين (المقدمة): ٢٦.
- (١٣٢) المصدر السابق: ٢٢١.
- (١٣٣) المصدر السابق: ٢٠١.
- (١٣٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٦.
- (١٣٥) المصدر السابق ٢: ٢٨٦.
- (١٣٦) المصدر السابق ٣: ٩١.
- (١٣٧) ديوان ابن عنين: ١٣٢.
- (١٣٨) فوات الوفيات ١: ١٢٧.
- (١٣٩) ديوان ابن عنين: ١٩٧.
- (١٤٠) ديوان ابن منير: ١٤٧.
- (١٤١) الخريدة قسم الشام ١: ٢٣١.
- (١٤٢) الملك، آية: ٥.
- (١٤٣) ديوان ابن عنين: ١٨٨.
- (١٤٤) ديوان العرقلة: ٤٨.
- (١٤٥) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٢.
- (١٤٦) المصدر السابق ٢: ٩.
- (١٤٧) المصدر السابق ٢: ٧٢.
- (١٤٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (١٤٩) ديوان ابن منير: ١٦٧.
- (١٥٠) فوات الوفيات ٣: ٩١.

(١٥١) ديوان ابن دنيير: ٥٧٥.

(١٥٢) ديوان ابن عنين: ١٨٨.

(١٥٣) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.

(١٥٤) ديوان ابن عنين: ١٥٤.

المصادر مرتبة هجائياً حسب عنوان الكتاب

أولاً: المصادر المخطوطة:

- ١- جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، مسلم بن محمود الشيزري، ميكروفلم رقم ٩٢٢٣ أدب، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.
- ٢- شعر ابن منير الطرابلسي، مخطوط رقم ٢١٠، مكتبة أمبروزيانا، وعنه شريط مصور في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.
- ٣- عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، أبو البركات مبارك بن أبي الشعار الموصلي، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.
- ٤- مسالك الأبصار في اخبار ملوك الامصار، ابن فضل الله العمري، ميكروفلم رقم ٣٦٥، الجامعة الأردنية.

ثانياً: المصادر والمراجع المطبوعة:

- ٥- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والمماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ودمشق، ١٩٨٩.
- ٦- تاريخ دمشق، ابن القلانسي: أبو علي حمزة بن أسد، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣.
- ٧- تالي كتاب وفيات الأعيان، فضل الله بن أبي بكر الصقاعي، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤.
- ٨- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، أبو شامة المقدسي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

- ٩- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، الحافظ ابن عساكر، هذبه عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.
- ١٠- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء الشام) تحقيق د. شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥.
- ١١- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء العراق) تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤.
- ١٢- ديوان ابن دنينير، ابراهيم بن أحمد (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، ١٩٨١.
- ١٣- ديوان ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن رستم، تحقيق أنيس المقدسي، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٨.
- ١٤- ديوان العرقله الكلبى، حسان بن نمير، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٠.
- ١٥- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ؟
- ١٦- ديوان فتیان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة، دمشق، ١٩٧٦.
- ١٧- الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري د. شفيق محمد الرقب، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣.
- ١٨- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها د. إحسان عبّ آس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨.
- ١٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
- ٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٢١- عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. فيصل السامر ونبييلة

- عبدالمنعم، وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٧.
- ٢٢- فوات الوفيات، محمد بن شاکر الکتبي، تحقيق د. احسان عباس، دار
صادر، بيروت، ١٩٧٣.
- ٢٣- الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أبو بكر بن أحمد ماضي
شبهة، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١.
- ٢٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٧٩.
- ٢٥- وفيات الاعيان وانباء الزمان، ابن خلكان، تحقيق د. احسان عباس، دار
صادر، بيروت، ١٩٦٨.